7me Année No. 297

Lundi - 13 - 3 - 1939

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسؤل
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٢٩٧ «القاهرة في يوم الاثنين ٢٢ محرم سنة ١٣٥٨ — الموافق ١٣ مارس سنة ١٩٣٩» السنة السابعة

الفهـــــرس

رسالة أمير المؤمنين الفاروق إلى الشباب



شعبي العزيز

أحببت ونحن نستقبل العام الهجرى الجديد ، أن أهنئكم والعالم الإسلامى بهذا العيد السعيد ، مبتهلاً إلى الله أن يجعله عام خيروسلام وإقبال على الجميع ، وأن يقرنه بتوفيق الجد ، وبلوغ القصد .

إن هـذا اليوم الذى يتمثل فيه أمامنا حادث الهجرة العظيم بما فيه من العظة البالغة ، والمعانى السامية ؛ وبما كان له من الأثر الخالد فى بث روح الفضيلة والإخاء والمثابرة فى سبيل الحق ، ليستحق منا تمجيده بالعمل الصالح والتوجيه النافع لخير الإنسانية .

وإنى ليطيب لى أن أشير إلى ما سيتم بإذن الله وجميل رعايته فى مستهل هذا العـام المبارك من عقد أواصر المصاهرة ، بين الأسرتين الكريمتين فى إيران ومصر ، مما يزيد فى إحكام روابط الإخاء والمودة بين الشعبين ، فوق ما يربطهما من الصلات الأدبية والثقافية منذ القدم

شعبي العزيز

لم أتحدث إليكم قبل اليوم عن نفسى ، وكنت أعد ذلك من سبق الحوادث ؛ ولكن هذه الفرصة قد أتاحت لى أن أتحدث إليكم قليلاً فى ذلك فتزدادوا معرفة بى ، وركوناً إلىّ

إن سر النجاح هو الثقة والإيمان . ومن لا ثقة به ولا إيمان له لا رجاء فيه . فعلى الذين وثقوا بى أن يعتمدوا علىّ ، إذ فى ذلك كل الخير لهم

إنى مع إعجابى العظيم بوالدى — طيب الله ثراه وتغمده برحمته — قد أكون خالفته فى بعض طباعه ، ولكننى أؤكد أننى قد احتفظت بأبرز هذه الطباع . فأنا مثله لا يستطيع أن يؤثر فىّ أحد إذا تبينت صواب أمر واعتقدت — بعد تقليب وجوه الرأى — أنه فى صالح شعبي أفراداً وجماعات

وإن ثقتى بنفسى ، وتوكلي على الله ، هو الذى يلهمنى تصريف الأمور ، ويوجهنى الوجهة التى اختارها

بيد أن هذا لا يمنع أن أستمع لآراء ذوى الخبرة من الرجال ، شأن كل إنسان يتحرى وجوه الصواب

إننى أومن — ومرّ الأيام يؤيد إيمانى — أن شباب مصر المتوثبة للمجد سيكتبون صفحة خالدة فى تاريخ الوطن . وفى استطاعتهم أن يصنعوا من هذا الوطن العزيز مصر العظيمة المتحدة التى هى آمالنا وأحلامنا جميعاً وعلى الشباب وحده تحقيق هذا الحلم .

ولكن انتبهوا ؛ فالطريقة التى تتبعونها لا تحقق أملنا هذا . ولا بد من العمل المتواصل فى جو يسوده الهدوء والإفادة من الرؤوس الناضجة واحترام النظام .

وليكن هدفكم سعادة المجتمع ومصر القوية ، القوية فى نفسها، وفى أبنائها ، والمستعدة لإعلاء كلمتها ، وفرض احترامها على من يعبث بعزتها

شعبي المحبوب !

كم كنت أحب أنكم بعد أن سمعتم هذه الكلمات تذكرونها ليرجع إليها كل منكم بين الوقت والآخر ، حتى لا تأتى عليها يد النسيان

ونصيحتى التى أسديها إلى كل مصرى مخلص لوطنه ومليكه : أن يكون ذا ثقة بالله وبنفسه وبمليكه .

والسلام عليكم ورحمة الله

براعة استهلال العام





ليس أدل على يمن هذا العام وإقباله ، من براعة استهلاله . وبراعة استهلاله تأييد قوة الإسلام ، وتوحيد كلمة الشرق ، بتوثيق الصلة بين عرشين أثيلين بالمصاهرة ، وتمكين الألفة بين شعبين نبيلين بالمودة . والعرشان المصرى والفارسى أعرق العروش فى أصل الحضارة ، والشعبان المصرى والإيرانى أسبق الشعوب إلى خدمة الفكر . والساميَّة الممثلة فى مصر ، والآرية الممثلة فى إيران ، هما اليوم مناط الرجاء فى نهضة الشرق الإسلامى القريب والبعيد ، لأنهما تجمعان شعبتى الفكر البشرى وما يميزهما من سمو الروح وبراعة الذهن وصوفية الخيال وحب الحقيقة .

فلا جرم كان زواج صاحب السمو الامبراطورى محمد رضا بهلوى ولى عهد إيران ، من صاحبة السمو الملكى الأميرة فوزية شقيقة صاحب الجلالة الفاروق ملك مصر ، حادثاً سعيداً فى تاريخ الإسلام والشرق ، سيكون له أثره المحمود فى تبليغ الرسالة المحمدية مرة أخرى إلى النفوس العانيـة التى ضلت سعادتها وراحتها فى ظلام القلق والحيرة والشك

* * *

نسجل هذا القران الميمون فى هذا العدد الخاص بالهجرة ، لأنه وقع فى أوائل السنة الهجرية ، ولأننا نرجو أن يكون للاسلام والسلام والمدنية من نقلة الأميرة المصرية من القاهرة إلى طهران ، ما كان لها من نقلة الرسول الأعظم من مكة إلى المدينة . وأنا لندعو الله مخلصين أن يحقق فيه للعرشين العريقين صوادق الرجاء ، وأن يجعله للشعبين العظيمين عهد الأخاء والرخاء ، وأن يقرنه للعروسين الكريمين بالبنين والرفاء .

ابن عبد الملك

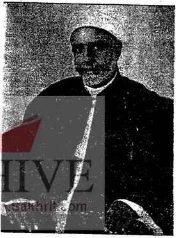
١٢ ٥ ٣١

ذكرى الهجرة

لإمام المسلمين الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر



في مستهل هذا الشهر العظيم بذكراه، أذعت على العالم الإسلامى نجوى لصاحب الهجرة صلوات الله وسلامه عليه، كان فيها تذكرة وفيها بلاغ. وليس شىء أحب إلى نفسى من إعادة هذا الحديث، فإن التذكير بسيرة رسول الله، وبهجرته فى سبيل الله، شفاء لغل الصدور، وجلاء لرين القلوب، وقوة لضعف الأنفس

إن دعوة الرسول الأعظم كانت فى مكة أشبه بالغيث أنزله الله فى يباب القفر، ففاض بعضه فى سباخ الأرض، واحتبس بعضه فى أصلاد الصخور، ثم نفّس الله عنه من شدة الضيق والحصر فانبثقت عنه الحواجز الصم، فجرى سيولاً فى السهول والأودية، وتشعّب ينابيع فى القرى والمدائن، يحمل الخصب والنماء، ويوزع الرى والغذاء، فأحيا موات الأرض، وروى غُلة الناس، وكان منه العمارة والحضارة والخير

نعم كانت هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة هى هذا الانبثاق الذى انساح به الإسلام فى أقطار الأرض يحمل الهدى للأرواح الحائرة، والسلام للنفوس المحروبة، والألفة للقلوب المختلفة، فسارت الإنسانية فى طريق الحياة على ضوئه، تنعم بالإخاء فى الدين، وتتمتع بالمساواة فى الشريعة؛ فلا عصبية تزرع الأحقاد وتنشر الفرقة، ولا امتياز فى الجنس أو فى اللون أو فى الثروة يوجب الاستعباد ويقتضى الظلم. وحمل خلفاء الرسول رضوان الله عليهم أجمعين مصباح الهداية وزمام القيادة من بعده؛ ثم استاروا بسيرته، واستنوا بسنته، فأورثهم الله ملك الأرض، وملكهم مقادة العالم، فقادوه على بصيرة وساسوه عن دراية؛ فكان كتاب الله هو الدستور، وحكمه هو القاضى، وسنة رسوله هى الخطة. فلما ابتعد المسلمون عن مشرق النور وأعرضوا عن الذكر، غشيتهم الغواشي فضلوا وجهة أمرهم، وجهلوا غاية قصدهم، وتفرقوا شيعاً فى الضلال، وتدفقوا أحزاباً فى الباطل، وأصبح كلام الله على ألسنتهم ألفاظاً لا معانى لها ولا رَجْع منها، فأفلت من أيديهم زمام الأمر، وسلب الله من أعدائهم الرعب منهم، فتقهقروا إلى مؤخرة الركب، وساروا أتباعاً بعد أن كانوا أئمة، وأهمالاً بعد أن كانوا سادة. كل ذلك والإسلام هو الإسلام، أنواره لألاءة لا تخبو، ومنابعه ثَرّة لا تنضب؛ ولكن المسلمين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، واستمرؤوا بغير سلطانه فوكلهم إلى غير راحم

أشهد أن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله: رجوع إلى الله فى أمره ونهيه، وردُّ الخلافِ إلى تنزيله ووحيه، وتأليف القلوب على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة. وفى يقينى أن الضال متى أدمت قدميه وعورة الطريق، وأنهكت قواه مشقة الحيرة، عاد يلتمس الهدى من مصدره، ويبتغى القصد من دليله. فالإسلام كما كان المبدأ سيكون المعاد، وكما أنقذ العالم فى الأولى سينقذهم فى الثانية. وما دام الله عز اسمه قد ختم به الوحى فلا بد أن يجدد حبله كلما رث ليعتصم به اللاجئ ويجتمع عليه الشتيت ويفىء إليه الشارد.

إن آية الهجرة التى ظهر بها الإسلام وعلا فيها الحق هى الإخلاص للعقيدة والتضحية للمبدأ والمصابرة فى الجهاد والمؤاخاة فى الله. وهذه الصفات التى زود الله بها رسوله الكريم لتبليغ رسالته وتمكين أمره، هى عدة كل دعوة ووسيلة كل نهضة؛ وبدونها لا يتفق رأى ولا تجتمع كلمة ولا تؤدى سياسة. يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه إليه تحشرون. يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) أسأل الله للمسلمين عامة ولهذا البلد خاصة هَدْيا وسدادا، وعونا وإسعادا، وألفة واتحادا، إنه واسع الفضل عظيم الطول سميع الدعاء.

محمد مصطفى المراغى

يهتمون به فهل يعرفونه ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد



العصر الحاضر من العصور التي اشتد فيها الاهتمام بالعالم الاسلامي بين جميع الدول الكبرى

لأن هذه الدول على وشك القتال، وتعلم كل منها ولا ريب أنها غانمة رابحة، وأنها كبيرة الأمل في النصر إذا ظفرت من اليوم بمودة الشعوب الاسلامية؛ وهي موزعة في المواقع التي تحوم حولها المطامع ويتأشب فيها النزاع

فاليابان تنادي بمبدأ « آسيا للأسيويين » وتعني بذلك أن « آسيا لليابانيين » وتعرف ما تكسبه في أسواق التجارة وفي ميادين الحرب إذا هي استمالت إليها مسلمي الصين والهند وما وراءهما من أواسط آسيا، فضلاً عن المسلمين في جزر الهند، وهم أصحاب شأن عظيم في تلك الأرجاء

والولايات المتحدة لا يسعها أن تنسى الاهتمام بشيء يهتم به اليابانيون، وبخاصة كل شيء تكون له علاقة بالصين والفليبين وشواطئ المحيط الهادي في عدوتيه

والدولة الشيوعية الكبرى — وهي الروسيا — تقف لليابان بالمرصاد في القارة الآسيوية، وتتودد إلى المسلمين هناك، وهي حائرة لا تدري هل تهدم الشعائر الدينية تطبيقاً لمذهبها فتغضب المسلمين وتدفع بهم إلى أحضان خصومها، أو تبقى على الشعائر الدينية فتغضب دعاتها ولا تستطيع التوفيق بين برامجها في الأرض الروسية وبرامجها في البلاد التي تصاقبها وتبادلها المعاملات التجارية والسياسية .

ولا تتخلف « الفاشية » في المضمار، بل يبرز على رأسها « موسوليني » منادياً بأنه « حامي » الإسلام ونصير المسلمين، ولو كان على نصيب من « الحذق الاستعماري » أوفى من هذا النصيب لعلم أن الإيمان بالدين وقبول حمايته من غير أهله نقيضان في المنطق والشعور على السواء، ولاسيما من وجهة النظر الإسلامية التي تفرض على المؤمن بها حماية نفسه في وجه المغيرين عليه

أما الدول الديمقراطية فهي تقابل المساعي اليابانية والمساعي الشيوعية والفاشية بالتوجس والحيطة، وتريد أن تقاومها فتعمد إلى عقد المحالفات وفض المشكلات وتوحيد المصالح بينها وبين العالم الاسلامي في حالتي الهجوم والدفاع، وتفتح لها الطريق في هذا المجال بريطانيا العظمى ثم الجمهورية الفرنسية

والعالم الغربي يعتقد اليوم أن « العالم الإسلامي » يتحفز ويتوثب، وأنه قوة رشيدة لا تعامل معاملة القاصر التابع لغيره، ولا مناص من حسبان حسابها لمن تربطه بها علاقة قريبة

كتبت مجلة « التاريخ الجاري » في عددها الأخير مقالاً جعلت عنوانه : « محمد يتهيأ للعودة » وعقبت ذلك بعنوان آخر فحواه أن المسلمين رقدوا خمسمائة سنة وهم يتحركون الآن ويتوثبون إلى السلطان

ثم قالت : « في جزائر الفليبين وفي الجامعات المصرية، في قصور الملوك الشرقيين وفي خيام التتار المترحلين، على كراسي البرلمان اليوغسلافي وبين أكواخ الزنوج عند الشاطئ الذهبي، في آجام أفريقيا وفي صحاري آسيا، يترقب المسلمون كل يوم بل كل ساعة مطلع المهدي الذي يتجسد فيه محمد عليه السلام، وقد تيقظت قوة الاسلام واتخذت لها شكلا سوياً في عالم السياسة، ولا تزال « التعاليم المحمدية » سارية منتشرة بين الشعوب الملونة التي تجد من المقاربة بين إدراكها وبين هذا النوع من التوحيد ما ليست تجده في المسيحية أو اليهودية . وهنالك عامل آخر من عوامل هذه الحركة وهو إخصاب الشعوب الإسلامية وتوالدها . فإن الشعوب البيضاء تصاب بالعقم وقلة النسل بينما يتوالد المسلمون كالأرانب ! »

وعلى هذا الاهتمام باليقظة الإسلامية وهذا الإيمان بقوتها هل تراهم يعرفون الحقائق عن الإسلام أو عن أخبار المسلمين الجوهرية ؟

إن مجلة « التاريخ الجارى » من أوثق المجلات الأمريكية خبراً وأصدقها بحثاً ، ومع هذا ترى الخلط فيها بين نهضة الاسلام وبين ما تسميه انتظار المهدى الذى يتجسد فيه محمد عليه السلام

وترى قبل ذلك أنها تمهد لمقالها فتقول : « فى كل يوم من أيام الجمعات يقف خمسة وعشرون ألفاً من رعايا الولايات المتحدة خاشعين مكتوفى الأيدى متوجهين إلى الشرق يصلون إلى الله ويسألونه قرب ظهور المهدى المنتظر . فإن أبناء الإسلام هؤلاء قد حافظوا على عقيدتهم النامضة فى رجعة مسيحهم كمحافظة المائتين والخمسين مليوناً من إخوانهم الموزعين بين مراكش وجزائر سنداى وبين مدغشقر وأرض المغول »

فأين العلم بالإسلام وبنهضة المسلمين ممن يكتبون هذه الكتابة وهم محسوبون بين أبناء وطنهم ممن يحسنون الخوض فى هذه الشؤون ؟

على أن الجهل بالأخبار الواقعة لا يقل عن الجهل بالعقائد النفسية والشعائر الدينية ، فقد كتبت مجلة أمريكية أخرى اسمها « أخبار الأسبوع » تقول بعنوان : (الخليفة فاروق) :

« لما دخلت تركيا الحرب فى سنة ١٩١٤ أعلن السلطان عبد الحميد (هكذا) باعتباره خليفة المسلمين الدعوة إلى الجهاد أو الحرب المقدسة على الحلفاء الكافرين ، وقد فشلت هذه الدعوة ولكنها كلفت بريطانيا العظمى وفرنسا وهما تحكمان مائة مليون وستة ملايين من المسلمين نفقات جمة فى مقاومتها بدعوة أخرى ، وبذلت الدولتان تلك النفقات وهما خائفتان .

« ثم ألغى كمال أتاتورك الخلافة فى سنة ١٩٣٤ بعد إقصاء السلطان .

« ثم قام موسولينى ينادى بأنه حامى الإسلام ويستثير العرب على بريطانيا العظمى فى فلسطين وغيرها من البلاد . وشاع أنه أراد بعض حكام العرب من أصدقائه على أن ينصب نفسه للمبايعة بالخلافة ، وإن كان الأمل فى نجاح الجهاد اليوم أضعف من ذلك الأمل فى سنة ١٩١٤ مكتفياً بما تستطيع تلك الخلافة من المضايقة فى بعض الأحوال » .

وبعد أن أشارت المجلة إلى منافسة بريطانيا العظمى فى هذه الحلبة قالت ما خلاصته أن صاحب الجلالة الملك فاروق بويع فى الأسبوع الماضى بالخلافة فى مسجد قيسون العظيم ، وأن خمسمائة ضابط هتفوا فجأة للخليفة الفاروق! وأن أمراء العرب شهدوا ذلك الحفل كأنما كان شهودهم إياه من قبيل المصادفة .

* * *

هذه أمثلة من جهلهم بعقائد المسلمين وأخبار بلاد المسلمين ، وهم يهتمون جد الاهتمام بنهضة المسلمين .

ويرجع هذا الخلط إلى أسباب : بعضها مقصود ، وبعضها غير مقصود .

فن الأسباب ما هو مقصود لأغراض سياسية أو تجارية كتمثيل المسلمين فى صورة تسوغ للدول المستعمرة أن تعاملهم معاملة المتأخرين الذين لا يصلحون لقوانين الحضارة وقواعد الحرية

ومن الأسباب ما هو مقصود لأغراض فنية ونعنى بها الرغبة فى التأثير والإغراب وتشويق القارىء إلى العجائب التى لا يألفها فى بلاده وبين أبناء وطنه . ومن الكتاب الغربيين من يتعمد التحريف فى أخباره لأنه يخشى أن « يخيب أمل » القراء فيه إذا أصغوا إليه ليحدثهم عن شعوب الشرق وأحوال الإسلام فإذا هو يحدثهم بما يألفونه ولا يستغربونه ولا يحققون به تلك الصور المزخرفة التى طالما تخيلوها وحلموا بها وهم يقرأون ألف ليلة وليلة ويستعيدون ما نقل إليهم من أقاصيص الرحالين فى الزمن القديم .

أما غير المقصود من الأسباب فمنشأه قلة الاكتراث وصعوبة البحث وعزلة المسلمين فى العصور الماضية وسماع أخبارهم من جهلاء بينهم لا يفقهون أسرار دينهم ولا يبالون ما يهذرون به عن عقائدهم وعاداتهم ولا يدركون الفرق بين ما تعودوه ودرجوا عليه وبين ما هو من حقائق الإسلام وشعائره الصحيحة .

على أن الذى يعنينا حق العناية هو أن نعلم نحن حقيقة

الغربيين ، لا أن يعلموا هم حقيقتنا ، وينفذوا إلى الصحيح من أخبارنا ومقاصدنا ، وإن كان علمهم بهذا نافعاً لنا كما تيسرت وسائله فى أيدينا .

والذى يبدو لنا من العلم بحقيقة القوم أن العالم الإسلامى خليق أن يعامل كل من يعامله منهم على سنة الإنصاف والمنفعة المأمونة العواقب ، وكل ما ينبغى أن يحذره هو الإصغاء إلى دعاة الشيوعية والإصغاء إلى دعاة الفاشية ، وأن يكون ذنبا فى أعقاب الديمقراطية ، فإذا استطاع أن يمشى مع الأمم الديمقراطية الحرة فى الطليعة فلا عليه بعد ذلك أن يعامل من يشاء على سنة الإنصاف والنظر البعيد إلى عواقب الأمور .

عباس محمود العقاد

عمر فى بيت المقدس

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —



هذا عام ستة عشر من الهجرة ، وقد انساحت جيوش المسلمين فى الشام والعراق وفارس وألقت أقاليم الشام بالمقاليد إلا فلسطين . وأبو عبيدة ابن الجراح يحصر بيت المقدس ، وقد ملأ الأسماعَ والقلوب بأس المسلمين وعدلهم ووفاؤهم

عزم أهل البيت المقدس أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس — فى عهد المسلمين وحمايتهم وعدلهم ، ورغبوا أن يكون صاحب عقدهم عمر ... عمر الذى ملأت سيرته الآفاق وسكنت إلى عهده النفوس ، واشتاقت إلى رؤيته العيون

وفصل عمر عن المدينة فى جمع من الصحابة ومعه مولاه أسلم. خرج يغذّ السير إلى الشام ليتفقد أحوال المسلمين ، ويصالح أهل فلسطين ...

ويمضى فى طريقه حتى يبلغ أيلة . ويتنظّر الناس موكب أمير المؤمنين يحسبون أنه سيطلع عليهم فى زينته يحيط به جنده ورجاله . والذى رأى منهم هرقل حين فتح بيت المقدس قبل عشر سنين ، أو شهده من بعدُ فى حلّ أو ترحال ، تخيّل عمر قادماً فى موكب كموكب هرقل أو فى موكب دونه ولكنه موكب ملك أو أمير

ولما دنا عمر من أيلة تنحى عن الطريق وتبعه غلامه فنزل فمشى قليلاً « ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فَرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه » . وكأن عمر خاف أن يداخله الزهو وهو على مركبه فى غير زينة فآثر أن يشعر نفسه أنه وخادمه سواء فتحول إلى رحل غلامه . فلما تلقّاه أوائل الناس قالوا : « أين أمير المؤمنين ؟ قال : أمامكم (يعنى نفسه) . وذهبوا إلى أمامهم فجازوه حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها . وقيل للمتلقين : قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها . فرجعوا إليه »[١]

ونظر الناس إلى رجل طويل جسيم أصلع أشقر شديد الحمرة كثير السبلة[٢] فى أطرافها صهوبة وفى عارضيه خفة — رجل لا تقع العين منه إلا على الوقار والتواضع والشدة فى الحق والرأفة بالضعفاء . رأوا ملكاً فى زى ناسك ، وراعى أمة فى صورة راعى ثلة . رأوا إنساناً لا تفقد فيه الإنسانية حقيقة من حقائقها ، ولا يصيب فيه الجبروت باطلاً من أباطيله .

اجتمع الأساقفة والرهبان يرون رجلاً فى يده الدنيا ولكنها ليست فى قلبه ، يملكها ولا تملكه ، ويصرّفها ولا تصرّفه ، ويستعبدها ولا تستعبده . وليس شيئاً أن تكون زاهداً فى صومعة ولكن العظمة كلها أن تكون زاهداً والدنيا تحت قدميك .

« ودفع عمر قميصاً له كرابيسَ قد انجاب مؤخّرُه عن قعدته من طول السير ، إلى الأسقُف وقال : اغسل هذا ورقعه . فانطلق الأسقف بالقميص ورقعه ، وخاط له آخر مثله فراح به إلى عمر ؛ فقال : ما هذا ؟ قال الأسقف : أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته؛ وأما هذا فكسوة لك منّى . فنظر إليه عمر ومسحه

(١) الطبرى حوادث سنة ١٧ (٢) طرف الشارب

ثم لبس قميصه وردّ عليه ذلك القميص . وقال : هذا أنشفهما للعرق[١] » .

— ٢ —

وسار عمر حتى نزل الجابية فى وسط الشام التى غلب عليها هرقل ، ولكنه دخل الجابية كما دخل أيلة . قدم « على جمل أورق تصطفق رجلاه بين شعبتى رحله بلا ركاب . وطاؤه كساء أنبجانى ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل. حقيبة ممزقة أو شملة محشوة ليفا هى حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، عليه قميص من كرابيس . الخ[٢] »

وجاءه رجل من اليهود ، وكان اليهود يرقبون روح الله بأيدى العرب ، ويدعون الله أن يفرج كربهم ويذهب عنهم جبروت الروم بأيدى المسلمين . قال اليهودى : السلام عليك يا فاروق ، أنت صاحب إيلياء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء

وأقبل وفد بيت المقدس إلى الجابية فصالحوا ، وكُتب لهم عهد شهد فيه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية بن أبى سفيان . وأعطوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وألا يُكره أحد على الدين أو يضار فى شىء .

وأزمع أمير المؤمنين المسير إلى بيت المقدس فإذا فرسه يتوجّى[٣] فأتى ببرذون فركبه ومشى البرذون مشيته فأسرع وهزّ راكبه فرأى عمر فيها خيلاء فنزل وضرب وجهه وقال : لا علّم الله من علّمك ، هذا من الخيلاء

— ٣ —

دخل عمر بيت المقدس لا مدمّراً مخرّباً كما دخلها بختنصر ، ولا مضطهداً أهلها كما دخلها الرومان من قبل ، ولا مزهوًّا بفتحه كما دخلها هرقل قبل عشر سنين بعد أن غلبَ الفرسَ على الشام ، ولكنه دخل رافعاً لواء التوحيد والعدل والأخوّة العامة والمرحمة الشاملة . دخل المدينة فسار إلى المسجد ليلاً ومضى إلى محراب داود فصلّى فيه . وطلع الفجر بعد قليل ودوّى الأذان فى أرجاء المدينة المقدّسة لأول مرة — صيحة الحق فى أعقاب الباطل المهزوم ترفعها تباشير الصبح فى أخريات الظلام . وشهد الله لقد كانت فاتحة الخير والسلم والكرامة لبيت المقدس ومن فيه .

وقرأ عمر فى الركعة الأولى سورة (ص) وسجد حين قرأ آية السجدة : « وظن داود أنما فتنّاه فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب » . ثم قرأ فى الركعة الثانية أول سورة الإسراء — سورة بنى إسرائيل وفيه وصف ما أصابهم على يد البابليين

ثم تقدم إلى الكناسة — الكناسة التى تراكمت على البيت حين أُخرب وهجر والتى عجز اليهود أنفسهم عن إزالتها حين ملكوا أمر البيت — تقدم إلى الكناسة — تقدم إلى الذلة المكدّسة على الحرم — تقدم عمر ليزيلها عن البيت كما أزال عن أهله الظلم والقسوة. تقدم أمير المؤمنين وجثا وقال: « أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا فى فرج من فروج قبائه » ، وإنما فعل عمر ما فعل تكريماً للبيت وتطهيراً وإيذاناً بهذا العهد عهد الطهارة والكرامة

وكبر كعب الأحبار وكبر الناس معه . قال عمر : ما هذا ؟ قال : كبّر كعب وكبّر الناس . قال : علىّ به . فقال كعب : «يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ بما صنعت اليوم نبىّ منذ خمسمائة سنة. فقال : وكيف ؟ فقال: إن الروم أغاروا على بنى إسرائيل فأديلوا عليهم فدفنوه؛ ثم أديلوا فلم يفرغوا له[١] حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بنى إسرائيل؛ ثم أديلت الروم عليهم إلى أن وليت[٢] ، فبعث الله نبياً على الكناسة فقال : أبشرى أورى شلم ! عليك الفاروق ينقّيك مما فيك . أتاك الفاروق فى جندى المطيع ، ويدركون لأهلك بثأرك فى الروم[٣] »

لقد لبث اليهود خمسمائة سنة ينتظرون أن تطلع شمس الإسلام ، ويأتى الفاروق ليحثو التراب فى قبائه ويأمر الناس بتطهير البيت المقدس

وما فقدوا رعاية الإسلام من بعدها ، إلا تسعين عاماً غلب فيها أهل الصليب فأصاب البيت المقدس ما أصابه حتى استرجعه رجل من رجال المسلمين ، ملك يتشبه بعمر بن الخطاب فى الإشادة بعدل الإسلام ومرحمة الإسلام . رحم الله صلاح الدين يوسف ابن أيوب

ولكن بنى إسرائيل حين رأوا الزمان ينيخ على المسلمين بكلكله لم يأتوا عوناً للعرب والمسلمين ، ولم يذكروا فضل الإسلام ولا حفظوا يد عمر ، ولا اعترفوا برعاية المسلمين وحمايتهم ثلاثة

(١) كان قميص عمر من الكرابيس أى القطن وكان الأسقف قدم إليه قميصا ناعما وفى بعض الروايات أنه من كتان فلم يرضه عمر
(٢) تاريخ عمر لابن الجوزى
(٣) الوجى : العرج من الحفا

(١) غلب الفرس على آسيا الصغرى والشام ومصر أيام كسرى برويز إلى أن استردها هرقل ؛ وهى الحوادث التى أشير إليها فى سورة الروم
(٢) الطبرى حوادث سنة ١٥
(٣) يعنى رجعت الدولة لليهود فلم يفرغوا لإزالة الكناسة عن حرمهم

عشر قرنا ، بل جاءوا يجزون الحسنة بالسيئة ، ويعينون الخطوب على الذين دفعوا عنهم الخطوب ، ويناصرون الأعداء على الذين أنقذوهم من الأعداء ، ويمالئون الذين دفنوا بيت المقدس على الذين رفعوا عنه التراب والرجس والهوان

وليت شعرى ما ذا ينقمون من المسلمين والعرب ؟

« يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا إلا أن آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم » ؟

« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإياى فارهبون »

عبد الوهاب عزام

من الفتوة العربية

الشاعر الفارس

أبو محجن الثقفي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —



كانت (المدينة) يومئذ عاصمة الإسلام ، وعمر الجبار العادل يحمل بيده القوية مشعل محمد فيرسل أضواءه السماوية إلى الجهات الأربع ، والفرسان المسلمون فى القادسية يثلّون العرش المجوسى ليقيموا على قواعده الكسروية منبر الهدى والسلام . وكانت الجزيرة العربية لا تزال معلقة بين السماء والأرض ، ترفعها الروحية الإسلامية إلى أعلى ، وتجذبها المادية الجاهلية إلى أسفل . وكانت مدن الحجاز الثلاث : مكةُ والمدينة والطائفُ مظهرَ الفتوة العربية ، لأنها مجمع السيادة والقوة ، ومنبع الرفاهة والثروة . والفتوة العربية وإن جمعت أطراف المروءة كانت تدور على ثلاثة الشاعر الشاب طَرَفة ، وهى الحب والشرب والحرب ، ثم تصور كل أولئك بالشعر الغنائى الرقيق . ولم تستطع هوادة الإسلام ولا صرامة عمر أن تكفكفا نوازى الهوى فى نفوس نشأت على فتون الجهالة ومرَح الشِّرك ؛ فكان فى أبطح مكة ، وعقيق المدينة ، وغزوانِ الطائف « مساحب من جرِّ الزِّقاق على الثرى » لا تزال معطرة الأديم بمناجاة الحب ، ومطارحة الشعر ، ومناقلة الحديث . وكان وادى العقيق فى العاصمة المنورة قلما يفيض دون أن تنتظم على حواشيه الخضر مجالس الشراب وسوامر الأحباب يتساقون فى غفلة العيون كؤوس الراح والصبابة ؛ ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن يغيبوا عن عيون العَسَس(١) ولا أن يفلتوا من يد الخليفة مهما تستروا بالليل وتحصنوا بالبعد

* * *

فى صبوة من هذه الصبوات الليلية الجاهلية قبض العسس العُمَرى على الشاعر الفارس أبى محجن وهو عائد فى ندمائه من العقيق يتماوح من السكر وينشد فى تطريب وهِزَّة :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة ... تُرَوِّى عظامى بعدموتى عروقها

ولا تدفننى بالفـــلاة فإننى ... أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

وأبو محجن — إن كنت لا تعرفه — رجل من سروات ثقيف ، درج فى رياض الطائف وكرومه ، ونشأ على فتوة أهله وصبوة شبابه ؛ فهو رضيع كأس ، وتِبْع نساء ، ومِسْعَر حرب ، وصناجة شعر ، وصِنو مروءة . أسلم هو وقومه فى أخريات الناس حين لم يكن من الإسلام بد ، ودخل فى دين الله بما ورث وكسب من عادِ الجاهلية ، فأخذ يروضُ نفسه الصعبة على الوقوف عند حدود الله ، فكان يخفق مراراً وينجح مرة ، حتى أقنعه اليأس آخر الأمر

(١) العسس : شرطة الليل يحرسون الناس ويكشفون أهل الريبة

أن لا بأس من الشراب ما دام يطهره الحد[1]، وأن لا ضير من الحب ما دامت تمحصه التوبة !

على ذلك عشق (شموس) الأنصارية وركب إلى رؤيتها المحظورة شيطانه المحتال ، فتزيا بزى فلاح وعمل أجيراً فى بستان يطل على دارها ، فكان ينعم بالنظر والسمع ، وربما تمتع بالسلام والحديث ، ثم يعود فيسلسل الماء بين البقول والزهور ويتغنى بمثل قوله :

ولقد نظرت إلى شموس ودونها   حرجٌ من الرحمن غير قليل

وعلى ذلك أيضاً كان يتتبع هو وندماؤه رياض الأرض ، يشربون ويطربون ثم يرجعون إلى المدينة نشاوى من القصف والعزف فلا تنم عليهم عين ولا يشى بهم لسان ، حتى ولى الخلافة الفاروق فطارد الجريمة فى كل مكان ، وهاجم الرذيلة فى كل مكمن

— ٢ —

دخل العسس بأبى محجن وندمائه على عمر ، فسألهم :

— أشربتم الخمر بعد أن حرمها الله ؟

فأجابه لسان القوم أبو محجن :

— كيف حرمها الله يا أمير المؤمنين وهو يقول : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ؟

فوقف صاحب رسالة القضاء من حجة الشاعر موقف الحائر ؛ ثم التفت إلى من حوله من صحابة الرسول يستمد رأيهم فى الأمر فاختلفوا فيه . فأرسل إلى علىّ مرجع الفتوى وفيصل الحكم يستشيره ، فقال : « إن كانت هذه الآية كما يقولون فينبغى أن يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير . وأرى إن كانوا قد شربوا الخمر مستحلين أن يقتلوا ، وإن كانوا شربوها مستحرمين أن يُحدُّوا . فسألهم عمر، فقالوا : والله ما شككنا فى أنها حرام، ولكننا قدّرنا أن لنا فيما قال نجاة. فجعل يجلدهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إلى أبى محجن، فلما جلده جعل يقول :

وإنى لذو صبر وقد مات إخوتى   ولست عن الصهباء يوماً بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها   فخلانها يبكون حول المعاصر

فقال له عمر : قد أبديت ما فى نفسك ، ولأزيدنك عقوبة لإصرارك . فقال الإمام علىّ حجة القضاء وولى العدل :

— ما ذلك لك يا عمر . وما يجوز أن تعاقب رجلاً قال لأفعلن وهو لم يفعل. وقد قال الله فى الشعراء : وأنهم يقولون ما لا يفعلون. فقال عمر : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فقال على : أهؤلاء عندك منهم ؟ لقد سمعت الرسول (ص) يقول : لا يشرب الخمر شاربُها وهو مؤمن .

نجا أبو محجن وما نجا . فإنه أصر على ألا يترك الخمر مخافة العقوبة ، وأصرّ عمر على أن يجلده كلما شرب ، حتى أعيا الخليفة أمره وأعجزه صلاحه ، فقرر أن ينفيه إلى جزيرة كان ينفى فيها الخلعاء، ووكل به شُرَطياً يصحبه إلى المنفى وأوصاه ألا يدع معه السيف فإنه كمىٌّ فاتك . وعلم أبو محجن بالحكم والوصية ، فتزود بغرارتين ملئتا دقيقاً، ثم عمد إلى سيفه فجعل نصله فى غرارة، وغمده فى غرارة. فلما بلغ هو والشرطى ساحل البحر قعدا للغداء، وفتح الغرارة يوهم أنه يخرج الدقيق ولكنه أخرج السيف ! فلم يكد الشرطى يراه فى يده حتى انطلق يعدو إلى بعيره فنجا به إلى المدينة بعد لأى .

وقال الشاعر لنفسه بعد تفكير وتدبير وعزم : لا ينبغى أن يكون المفر من عمر فى الحجاز إلا إلى سعد فى العراق

— ٣ —

وفد أبو محجن على فاتح العراق سعد بن أبى وقاص يوم الكتائب من أيام القادسية ؛ وكان سعد قد تلقى من أمير المؤمنين الساهر اليقظ كتاباً يأمره فيه بحبس الشاعر ساعة يفد. ودارت رحى الحرب بين العرب والفرس وأبو محجن مقيد فى قصر القائد، فما كاد يسمع وغاها حتى عصفت النخوة فى رأسه ، وثارت الحمية فى نفسه ، واضطرب فى حبسه اضطراب الأسد فى قفصه . ثم زأر بهذه الأبيات على مسمع من سلمى زوج سعد :

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا   وأُترك مشدوداً علىّ وثاقيا

(١) الحد : عقوبة الجلد المقررة على الشارب

إذا قمت عنّانى الحديد وغُلّقت مصاريع من دونى تُصم المناديا
هلم سلاحى لا أبالك إننى أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
ولله عهد لا أخيس(١) بعهده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا(٢)

ثم قال يا سلمى : هل لك من خيرٍ إلى ؟ فقالت : وما ذاك ؟ قال : تخلين عنى وتعيريننى البلقاء فرس سعد ، ولله علىّ إن سلمتُ أن أرجع حتى تضمى رجلىّ فى القيد . فترددت سلمى حتى تبينت الصدق فى قوله فأطلقته . وركب أبو محجنٍ البلقاء ثم دب عليها ؛ حتى إذا تنفس الصبح وأشرق يوم أرماث واصطف الناس ، حمل على ميسرة العدو حملة صادقة فانخلعت لها القلوب ، وانخرعت منها الفيَلة ، وتضعضعت أمامها الفرس . وعجب العرب أن يكون فيهم هذا الفارس ولا يعرفونه ، حتى قال أحدهم : إن كان الخضر يشهد الحرب فهو صاحب البلقاء . وقال آخر : لولا أن الملائكة لا يقاتلون ظاهرين لقلنا هذا مَلَك . وجعل سعد يقول وهو يشرف على المعركة: الطعن طعن أبى محجن، والضبْر(٣) ضبر البلقاء ، ولولا محبسه لقلت إنه هو !

وانتصف الليل فتحاجز العسكران ؛ وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ووضع رجليه فى القيد !

وكانت سلمى قد رأت فعله وسمعت قوله فأعجبت بإبائه ووفائه وبطولته. ثم دخلت على سعد وكانت مغاضبة له ، فصالحته وأخبرته بخبر أبى محجن ، وسألته أن يطلقه . فاستخف سعداً ما رأى من فتوة أبى محجن ورضا زوجه ، فدعاه وقال له وهو لا يزال فى حماسة الإعجاب ونشوة الغبطة : والله لا أحبس بعد اليوم رجلاً نصر الله المسلمين على يديه هذا النصر ، ولا أعاقبه إذا شرب . فقال له أبو محجن وقد بدت على محياه سِماتُ النبل ودلائل المروءة :

— وأنا والله لن أذوقها بعد الساعة . لقد كنت أشربها أنفةً من أن يقولوا خاف الحد ، فأنا اليوم أتركها رغبة فى أن يقولوا خاف الله !

أحمد حسن الزيات

(١) خاس بالعهد : نكث
(٢) حوانيت الخمر
(٣) ضبر الفرس : جمع قوائمه ووثب

المرأة فى شباب الرسول

للأستاذ توفيق الحكيم



لم يرو لنا التاريخ أن النبى عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل خديجة . فلقد كانت حياته حتى الخامسة والعشرين حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء ، العاكف على عمله ، يرعى الغنم فى الفلاة ويلجأ إلى التأمل العميق . فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره . كل ما ورد مع ذلك من أخبار لهو الشباب أنه قال ذات ليلة لفتى من قريش كان معه بأعلى مكة يرعيان غنم أهلها : « أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان » . ثم خرج . فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير ، فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام فى مكانه ولم يوقظه إلا مس الشمس. فرجع إلى صاحبه فسأله: « ما فعلت؟ » فأخبره بما كان . وكان هذا شأنه فى كل ليلة من مثل هذه الليالى

كانت العفة المطلقة إذن هى صفته الغالبة ؛ وكان الزهد والحلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية الشبان ، وما جعل قومه يسمونه « الأمين » .

ما الذى كان يشغل رأس الشاب محمد فى تلك السن ما دام اللهو والمرأة لا محل لهما عنده ؟ أتراه كان يحس فى قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟ نعم .

ولعل هذه الفكرة تملكت كيانه وطغت على كل شبابه فلم تتسع حياته فى ذلك الوقت لشىء آخر .

لقد كان هذا دائماً شأن أغلب أولئك الذين انتظرتهم أقدار عظام، وتملكتهم منذ شبابهم مثل عليا وأحلام ، عمرت كل أعوام شبابهم وحلت فيها محل اللهو والمرح .

إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة إلا الشاب الموعود برسالة عظمى فهو يعيش دائماً مع شبح المجد المنتظر .

لعل هذا يفسر لنا بعض الشىء حياة الفتى محمد حتى الوقت الذى لقى فيه أول امرأة أحبها « خديجة » . وإننا لو تأملنا الأمر ملياً لتبين لنا أنه لم يكن البادئ بالحب . كل شىء يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمرأة آخر ما كان يفكر فيه وقتئذ ، فلقد كان يسير فى طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا، وكأنه لا يمشى على هذه الأرض إلى أن لحظته خديجة ذات يوم ولمست كتفه فأفاق قليلاً ورفع عينيه إليها .

نعم . إنها هى التى كانت ترقبه منذ زمن ؛ وإن لشعورها نحوه جذوراً ممتدة فى أغوار قلبها ، امتداد عرق الذهب فى المنجم العميق . ما مبدأ هـذا الشعور ؟ لعله ذلك اليوم الذى احتفلت فيه نساء قريش بعيد لهن ، وكانت خديجة بينهن عند وثن من الأوثان فبرز لهن أحد اليهود ونادى بأعلى صوته : « يا نساء تيماء! إنه سيكون فى بلدكن نبى يقال له محمد ، فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فلتفعل ! » فقذفته النساء بالحجارة وقبحنه وأغلظن له، إلا خديجة فإنها أطرقت وكأن شيئاً وقع فى نفسها من كلامه .

ثم حدث بعد ذلك أن خديجة — وقد كانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام وتستأجر من أجلها الرجال — أرسلت الشاب « محمداً » فى تجارتها وضاعفت له الأجر وأرسلت معه غلامها ميسرة ، فعاد رابحاً ضعف ما كانت تربح التجارة على يد غيره ، لأمانته واجتهاده .

وقص عليها عندئذ غلامها « ميسرة » وقد راقب محمداً فى رحلته ما رآه من خلق هذا الشاب المستقيم الأمين ، ولعله أخبرها فيما أخبر أن أحد الرهبان قابله ، وأنهما تذاكرا ملياً فى أمر النبى الموعود المسمى « محمد » كل هذا مع ما تشبعت به الأذهان من أساطير النبوة المنتظرة قد ألقى فى روع خديجة أنها أمام شاب لا يبعد أن يكون هو النبى الموعود .

فإذا أضفنا إلى كل هذا أن محمداً كان فتى فى الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل النظر ، وأن خديجة كانت امرأة فى الأربعين ، أدركنا أن مثلها كان لا بد له أن يحب مثله . وهل يمكن أن نسمى هذا الشعور باسم آخر غير « الحب » ؟ ذلك الذى يدفع امرأة ذات شرف وثروة أن تبدأ هى الخطوة الأولى نحو فتى فقير يتيم؟ هى التى قد تقدم إليها أكرم رجال قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً ، طلبوها وبذلوا لها الأموال فلم تلتفت إليهم ، وأرسلت تابعتها « نفيسة » دسيساً إلى الشاب محمد تعرض عليه يدها

منبع الحب إذن كان قلب « خديجة » ، ولقد كان هذا الحب سامياً قوياً عظيماً فاستطاع أن يفتح قلب محمد وأن يملأه كل تلك الأعوام التى عاشتها خديجة، بل إن الحب لم ينطفئ بموت خديجة، ولقد ظل مكانها من قلبه قائماً دائماً لم تستطع قط امرأة أن تزاحمها فيه .

هـذا هو حب محمد الأول ، وتلك ناحية من نواحى الفضل المجهولة لم يذكرها الناس كثيراً لخديجة بما هى أهله من التكريم والتمجيد .

توفيق الحكيم

قرش فلسطين

دعت جمعية الشبان المسلمين إلى التبرع بقرش لإعانة منكوبى فلسطين ، وستجمعه قريباً . فباسم الإسلام الذى يحض على التعاون، والعروبة التى تدعو إلى النجدة ، والمروءة التى تعطف على المظلوم ، والانسانية التى تحدب على المنكوب، تدعو الرسالة كل إنسان أن يسارع إلى بذل هذا القرش الصغير، فى سبيل هذا المسعى الكبير .

أعظم يوم في تاريخ العالم

للأستاذ عبد العزيز البشري



لاشك عندى فى أن أعظم يوم فى تاريخ العالم على الإطلاق، هو اليوم الذى هاجر فيه محمدٌ (ص) وصاحبُه من مكةَ إلى المدينة. فإذا كنتَ فى حاجة إلى دليل، فسيطالعك بعد قليل.

يرى المستعرضُ لتاريخ الأديان ودعوة الرسل أنها جازت بمراحل ثلاث، طوعاً لتطور الإنسان من البساطة والغفلة والوحشية إلى أن أصبح كفؤاً للحياة المفكِّرة المدبِّرة التى تطلب السموّ، وتنشد السعادة فى ظلّ الأمن والنظام.

الطور الأول:

ففى الطور الأول كانت بعثة الرسل مقصورةً على الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، والأمر بأمهات الفضائل، والنهى عن كبريات الرذائل، كما كان وعيد المخالفين الكائدين وتعذيبهم وإرسال العبرة بهم بالغاً غايةَ الرَّوعة فى الفتك والعصف والتنكيل.

فلقد أهلك الله قوم نوح، بعد إذ عصَوْه وتحدَّوا دعوته، بإغراقهم أجمعين. قال تعالى: «حتى إذا جاء أمرُنا وفار التنورُ قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلَك إلا من سبق عليه القولُ ومَن آمن، وما آمن معه إلا قليل. وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها، إن ربى لغفورٌ رحيم. وهى تجرى بهم فى موجٍ كالجبال، ونادى نوحٌ ابنه، وكان فى معزلٍ، يا بنىَّ، اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوى إلى جبلٍ يعصمنى من الماء. قال لا عاصمَ اليومَ من أمر الله إلاّ من رحم، وحال بينهما الموجُ فكان من المغرقين»: (سورة هود)

ومن هؤلاء المخالفين من أُهلكوا بالريح العاصفة. قال تعالى: «وأما عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية، سخَّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسوماً، فترى القومَ فيها صرعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية. فهل ترى لهم من باقية»: (الحاقة)

وقال تعالى: «كذبت عادٌ فكيف كان عذابى ونُذُر، إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحسٍ مستمرّ، تنزع الناسَ كأنهم أعجازُ نخلٍ مُنقعر، فكيف كان عذابى ونُذُر» (القمر)

وأما ثمود فأُهلكوا بالصواعق والزلازل. قال تعالى: «فأخذتهم الرَّجفةُ فأصبحوا فى دارهم جاثمين» (الأعراف).

وقال تعالى: «وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنَوا فيها» (هود).

وقال تعالى: «وفى ثمودَ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقةُ وهم ينظرون»: (الذاريات).

أما قوم لوط، فانظر ماذا أُخذوا به من العقاب الشديد. قال تعالى: «فلما جاء أمرُنا جعلنا عاليَها سافلَها وأمطرنا عليها حجارةً من سجِّيلٍ منضودٍ مسوَّمةً عند ربك. وما هى من الظالمين ببعيد» (هود).

وقال تعالى: «فأخذتهم الصيحةُ مُشرقين، فجعلنا عاليَها سافلَها وأمطرنا عليهم حجارةً من سِجِّيل، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين» (سورة الحجر).

ونكتفى بهذا القدر اليسير فى الاستشهاد بما كان يُؤخذ به العُصاة الكائدون من ألوان العصف والخسف والتنكيل والتدمير

وقبل أن نتحول إلى الحديث فى الطور الثانى نرى من الخير أن ننبه إلى أن انقسام التاريخ إلى مراحل أو أطوار، ليس معناه أن مرحلة تبدأ من حيث تنتهى سابقتها على الضبط والتحديد، ولا أن التطور من حال إلى حال يحدث دفعة واحدة، بل إن المراحل ليتداخل بعضها فى بعض كما أن التطور لا يكون إلا بالتغير من طرفيه جميعاً بالنقص من هذا وبالزيادة من هذا، حتى يتلاشى القديم ويحل محله الجديد، وهكذا. وكذلك يكون التطور فى كل شىء فى هذا العالم

الطور الثانى: أما الطور الثانى فمن أظهر مظاهر الترفُّق بعض الشىء فى النُّذُر، والتخفيف فى فنون العقوبات وسعة

الدعوة وتبسّط التشريع ، سواء فى العبادات أو فى المعاملات بين الناس . وفى هذا الطور أيضاً كانت تعتمد الدعوة ، بقدر كبير ، على التحدى بالمعجزات ، حتى لقد انتهى هذا الطور بكف العقوبات وتفرد المعجزات

أما الترفق فى النذر والتخفيف فى ألوان العقاب ، فلقد كان هذا التخفيف يتناول الكمّ أو الكيف أو يتناولها جميعاً . قال الله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » إلى قوله : « فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادعَ والدم آيات مفصّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنَنّ لك ولنرسلنّ معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » سورة الأعراف

وقال تعالى : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دَرَكاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » سورة طه

فأنت ترى أن ما أصاب آل فرعون من الجدب ونقص الثمرات وما أرسل عليهم من الطوفان والجراد الخ لم يبلغ من الشدة والروع بعض ما يبلغ العصف والدمدمة والخسف والتدمير . أما إغراق فرعون ومن أتبع بنى إسرائيل من جنده فلعصمة الفارّين من كيدهم وبطشهم ، والأمر لا يعدو هنا وقع الأذى على كل حال . على أن عددهم بالنسبة لجمهرة الكافرين الكائدين جدّ قليل

وأما المعجزات فحسبك منها معجزات موسى عليه السلام إذ ألقى عصاه فإذا هى حية تلقف ما يأفك الساحرون ، وإذ ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ، وإذ ضرب بها البحر فانفلق فكان كلُّ فِرْقٍ كالطّود العظيم

وحسبك منها معجزات عيسى عليه السلام . قال تعالى : « ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمهَ والأبرصَ وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » . (آل عمران)

الطور الثالث : وبعد فإن بمعجزات عيسى عليه السلام ، قد خُتم هذا الضربُ من الخوارق التى تجرى على أيدى الرسل ، يتحدّون بها المخالفين المعاندين ، ويثبتون بها أن ما جاؤوا به إنما هو من عند الله ، وكيف لا وقد أيدهم منها بما يخالف سنن الكون ويندّ على طبائع الخلق

أما بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ففوق أنها تشارك بعثة عيسى عليه السلام فى تجرُّدها من الأحداث التى مر بك بعض وصفها ، فلا عصفَ ولا خسف ، ولا رياحَ عاصفة ، ولا زلازلَ مدمدمة ، ولا شىء من هذا ولا ما دونه مما يزعج النفوس ويدخل الروع على القلوب — فإن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز بأمرين : الأول أنها لا خلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات ، والثانى أنها باقية مستمرة لا تنقطع على طول الزمان . وقد عرفتَ من غير شك أن هذه المعجزة هى (القرآن)

وكذلك جعلت الدعوة الإلهية تتطور وتنمو بتطور الإنسانية ونموّها على الأحقاب

* * *

إذن لقد نضجت الإنسانية أو أصبحت على وشك النضوج ، وإذن لقد تجاوز الإنسان طور القِصَر وبلغ الرشد أو أضحى على شَرَف البلوغ

لقد أضحى الإنسان حقيقاً بأن يُرفع عن نفسه الحجر ، وتُطلق له حرية التصرف فى استئنافه مناهج الحياة . إذ قد تهيأ له لو فكّر وتدبّر ، أن يعرف ما ينفعه وما يضره ، وما يسيئه فى الغاية وما يسره ، وأن يميز بين ما يسعده وما يشقيه ، ومايعزه وما يرديه . فإذا اختلط عليه الأمر أو نزّعت به العادة إلى الهوى ، نُبّه ذهنُه ، وحُرّك فكره ، وضُربت له الأمثال ، وأقيمت له الحجة يصول بها العقل كل مَصال . (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)

(أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون) الأعراف

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطحت ، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) الغاشية . وهذان مثلان مما لا يدركه الحصر مما ورد فى القرآن الحكيم

* * *

قومي بين الشرق والغرب

للأستاذ محمود غنيم



قومي لأنتم عبرةُ الأقوامِ هل تُنسبون ليافثٍ أو سامِ ؟
أبناء عمى من نزارَ ويعربٍ ليسوا بأعراب ولا أعجام
يترسمون الغرب حتى يوشكوا أن يعبدوه عبادة الأصنام
ما قلدوهم مبصرين وإنما تبعوا نظامهمُ بغير نظام
للغرب عادات كغازات سرت فى الشرق مسرى الداء فى الأجسام
إنى رأيت جيوشه لم تغزنا فى الحرب بل فى ملبس وطعام
لا تأمنوا المستعمرين فكم لهم حرب تقنع وجهها بسلام
حرب على لغة البلاد وعادها ليست تُشَنُّ بمدفع وحسام
والشعب إن سلمت له عاداته ولسانه لم يخش قطع الهام

* * *

ماصاغ ربك من نضار خالص شعباً، وشعباً من حصى ورغام
هى محض أوهام أعيذ الشرق من أم تعيش أسيرة الأوهام
أنى أعيذ الشرق من متمسّح بالأجنبي لقومه هدام
إنْ لاَمَ غربىٌّ على أوطانه أنحى بلائمة مع اللوام
وإذا رنا نحو الغريب فإنما يرنو بمجهر راصد الأجرام
وإذا أعار بني أبيه نظرة فبمقلة الأعمى أو المتعامى
والعين تخدع ربها . ولربما خلقت عمالقة من الأقزام

هذه دعوة محمد ، وقد رأيت أن ما سبقها من دعوات الرسل إنما كان مقدمة لها وطريقاً إليها

هى الدعوة التي تسمى بالإنسانية إلى غاية كمالها من طريق إيقاظ العقل ، والفسح فى حرية الفكر ، والتى تسمى بالإنسان إلى غاية سعادته من طريق اعتناق الفضائل ، والتجرد من الرذائل . فبكظم الشهوة ، والعفة ، والرحمة ، والإيثار ، تستطيع هذه المجموعة البشرية أن تعيش على الأرض ناعمة بالرغد والدّعة والسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بُعثتُ لأتمم مكارمِ الأخلاق)

ولقد دعا محمد صلى الله عليه وسلم أول ما دعا ، أهله وعشيرته من قريش ، فكذبوه وشاقّوه وآذوه وأسرفوا فى الكيد له والعَنَت عليه . وكيف له باستعانتهم على بث دعوته ، ونشر رسالته التي أُرسل بها للعالمين ، إذ هم أشدُّ مَن كفر بها وصدّ عنها ، وبغّض فيها ونفّر منها ؟

ولكن يأبى اللهُ إلاّ أن يُتم نورَه . فلقد أسلم أهلُ يثرب وآمنوا بالله ورسوله ، وأعدّوا أنفسهم للذياد عن دينه مهما جشّمهم الأمر من التضحية فى سبيل الله بالأموال والأنفس والأولاد . هذا شعبٌ قوىٌّ بعَدده ، قوىٌّ ببسالته ، قوىٌّ بإيمانه . يدعو الرسول ليتسلّم زمامَه، ويتولّى قيادَه، ليثبّت من الإسلام دِعامَه، ويرفع أعلامَه ، ويَبسُط فى الأرض حكمَه وأحكامَه . وكذلك يهاجر محمد فى سرّ من معشره العاتين إلى المدينة، حيث يُعزّ اللهُ الدين، ويُذل الشرك ، ويفتح اللهُ لنبيه الفتح المبين، وينصره النصر العزيز وتعلو كلمةُ الإسلام فى العالمَ ويسود حكمُه أقطارَ الأرض .

ثم لا يَمضى أكثرُ من قرن ونصف قرن حتى ينشئ بفضل تحكيم العقل وإطلاق حرية الفكر أزهَى حضارة عرفها التاريخ ، تجود فى ظلّها القرائحُ بأجدى العلوم وأندى الفنون ، مما لا تزال آثاره ، ولو على أيدى غير أهله، ثابتةً على وجه الزمان !

أرجو أن تكون أنت أيضاً قد آمنتَ بأن يوم الهجرة هو أعظمُ يوم فى التاريخ

عبد العزيز البشرى

وإذا تنكر للحمى أبناؤه ... فهمو أضرُّ له من الأخصام

* * *

ما بال بحر الروم من يجتازه ... يوماً تناسى سالف الأيام ؟

فإذا به خلق جديد . ما مضى ... من عمره حلم من الأحلام

تتغير الدنيا عليه فكلها ... فى عينه نقص بغير تمام

هل تغرق العادات من أربابها ... فى ذلك البحر الخضم الطامى ؟

ما اجتاز شرقى مجاجة موجه ... إلا وعاد مزوداً « بمدام »

إن التكافؤ فى الدماء فريضة ... ولو أنها لم تأت فى الأحكام

وهو القران إذا تخالف أهله ... وطناً فقدته لغير دوام

كم زيجة مازال يدمى جرحُها ... ومن الجروح ذوابلٌ ودوام

* * *

لا أعرف العربىَّ يكشف رأسه ... نحو المجالس مومئاً بسلام

إن زيرَ تخرج عرسُه من دونه ... للزائرين بثغرها البسام

بدوارس الأطلال يلحق أمه ... ويرى أباه رابع الأهرام

يعصي الإله. فإن أشارت عرسه ... بإشارة فالقول قول حذام

ويكاد يسلخ نفسه من قومه ... لو تُستطاع قطيعة الأرحام

ويكاد يمسخ خلقه لو كان فى ... يمناه قلب معالم الأجسام

* * *

لا أعرف العربى يلوي فكه ... إن همَّ يوماً فكه بكلام

إن فاهَ تسمعُ لكنة ممقوتة ... من فيه سكسونيةَ الأنغام

لفظاً من الفصحى وآخر نابياً ... كالقار ممزوجاً بكاس مدام

لغة إذا قرعت بجندل لفظها ... أذن السميع شكت من الآلام

لهفى على الفصحى رماها معشر ... من أهلها . شلت يمين الرامى

لم يهتدوا لكنوزها فإذا همو ... يرمونها بالفقر والإعدام

الدر فى طى البحور مخبأ ... والتبر – إن تنشده – تحت رجام

لن يستعيد العُرْب سالف مجدهم ... ولسانهم غرض لكل سهام

إن يرفعوا ما انقضّ من بنيانهم ... فالضاد أول حائط ودعام

* * *

أبنى نزارَ ويعرب أوصيكمو ... بذخيرتين الضاد والإسلام

إن جاءكم باسم الثقافة ملحد ... فى دينه فطؤوه بالأقدام

العلم وضع العالمين وإنما الأ ... ديان وضع الواحد العلام

المسلمون على شتات ديارهم ... فرض الإله خضوعهم لإمام

الله بالجُمعات وحّد بينهم ... وبحج بيت فى الحجاز حرام

دين ابن عبد الله دين باسمه ... قبض الرشيد على الورى بزمام

هو دولة كبرى وملك شامخ ... لا محض تكبير ومحض صيام

* * *

إن يُزْهَ شرقي بغير العرب من ... أجداده الأتراك والأروام

فأنا الفخور بأننى لا ينتمى ... للغير أخوالى ولا أعمامى

إن تسألوا عنى إلى من أنتمي ؟ ... فإلى رعاة النوق والأغنام

أبنير مجد بنى نزارَ ويعرب ... يُزهى عراقيٌّ ويفخر شامى ؟

« مدرسة الأورمان » محمود غنيم

صيانة العقيدة المحمدية من احتيال النفوس

للأستاذ عبد الرحمن شكري



نقرأ في كتب السير عن أناس من السلف الصالح بلغت نفوسهم من الصفاء والتغلب على احتيال الأهواء مبلغاً كان للاسلام حجة أعظم من ألف حجة ودليل من الحجج والأدلة النظرية، وقد بهرت سيرتهم وقدوتهم من عرفهما من غير المسلمين فأجلوا ذلك السلف الصالح من أجلها وأجلوا المسلمين من أجلهم ولو أنهم كانوا لا يؤمنون به وامتدحوه كما يمتدح الأب إذا حسنت سجايا ابنه التي بثها فيه. ولكن لا شك أن روح العقيدة الواحدة تختلف في نفوس معتنقيها باختلاف تلك النفوس؛ فإن من الناس القاسي والرحيم والكريم واللئيم والشهم والوغد والمقبل على لذات الدنيا والزاهد فيها والوفي والغادر والعالم والجاهل والذكي والغبي، وقد يعتنق العقيدة الواحدة أناس من كل هذه الطوائف ولكل منهم صفات تغلب على نفسه وتصبغ آراءه وأقواله وأعماله بلونها، وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يعمل إلا وعليه رقيب من تلك الصفات وهي كالقيود لا يستطيع أن يخلص منها. والعقيدة في نفس معتنقها كالماء في الإناء يتخذ شكله؛ فإذا كان الإناء مستديراً كان الماء فيه مستديراً، وإذا كان الإناء مستطيلاً كان الماء مستطيلاً. وكذلك العقيدة تتخذ شكل النفس التي تعمرها. نعم إن العقيدة تخالط النفس والماء لا يخالط مادة الإناء ولا يحدث به أثراً؛ ولكن المشاهد المحقق أن العقيدة تؤثر في النفس بعض الأثر ولكنها لا تستطيع أن تحول طبائعها، وإلا لو استطاعت لما وجد بين معتنقي العقيدة الواحدة الطاهر البريء والمجرم الأثيم والسمح الكريم والوغد اللئيم والذكي الفهيم وذو الفهم البهيم والرحيم والقاسي الزنيم. فالعقيدة فيما هو مشاهد في الحياة لا تحمل النفوس على أن تتخذ شكلاً واحداً بل تبقى النفوس على محامدها ومساوئها، وكما تؤثر العقيدة في النفس بعض التأثير تؤثر النفس في عقيدتها. ومهما اشتركت النفوس المتباينة في شعائر العقيدة فهو اشتراك عام لا يمنع اختلاف النفوس في تفضيل جانب على جانب ومظهر على مظهر من مظاهر الدين، فشكل العقيدة في النفس الغليظة القاسية الغبية غير شكلها في النفس الرحيمة الذكية، وتتخذ العقيدة الواحدة أيضاً أشكالاً مختلفة في الأمم والأقاليم والأزمنة المختلفة وهي عقيدة واحدة ذات شعائر ومبادئ لا تتغير. والناس قلما يلتفتون إلى فروق روح العقيدة في النفوس المتباينة، وقلما يحسبون حساباً لهذه الفروق بالرغم من أنها قد تجعل الرجلين وهما على عقيدة واحدة وكأنهما على عقيدتين بينهما من البعد مثل ما بين السماء والأرض، وإغفال هذه الفروق يؤدي إلى الاهتمام بمظاهر الدين أكثر من الاهتمام بروحه، والدين معناه في روحه الزكية، فإن رذائل النفوس قد تستولي على مبادىء الدين وتقاليده وعرفه وأخلاقه فلا تأخذ منها غير المظاهر بل إنها قد تزكي نفسها وتهون أمر تركها روح الدين وحقيقته وأخلاقه بالاندفاع في نصرة مظاهره والانفعال في نصرتها وقد يكون انفعالاً لا يخفي العقل الباطن أنه بسبب أن النفس في غيظ شديد من أن روح الدين تخالف أثرتها وفائدتها الدنيوية وأنها لا تستطيع أن توفق بين ورع روح الدين وعفته وبين مطالب الحياة فتضحي بورع روح الدين كي تنال الدنيا أو بعض مطالبها حسب استطاعتها ثم تظهر الغيرة على مظاهر الدين الذي ضحت بروحه وورعه وتغتفر تلك التضحية بتلك الغيرة، والنفس في احتيالها هذا ربما كانت معذورة إلى حد ما إذا لم تغال وتشتط وتقسو وتلوم وتؤذي الناس كي تعذر نفسها لدى نفسها التي ضحت بورع الدين وكفافه وعفته وهي تحسب أنها إذا لم تستطع صيانة روح الدين والتخلق بورعه كي تنال رضاء الله ونعيم الآخرة فهي ربما تنال رضوانه ورحمته ونعيمه بهذا الاحتيال فتجمع إلى نعيم الأخرى الانطلاق في طلب الدنيا وتكفر عن نبذها ورع الدين

بالاقتصاص من غيرها وتجعل هذا الاقتصاص قرباناً إلى الله بدل أن تجعل قربانها الصفاء والزهد فى الدنيا والعفة عما يتطلبه نيل حطام الدنيا . ولقد قلنا إننا نعذر هذه الروح ونرحمها إذا لم تشتط فى هذه الخطة، نعذرها بعض العذر لضعف النفس البشرية ولضرورات الحياة وما تقهر الحياة النفس عليه من الدنايا، ولأن النفس الورعة التقية قد تتردد فيها بالرغم من ورعها هواجس وخواطر طلب الشهوات لنفسها فتحاول أن تكفر عن تلك الخواطر التى تخشاها بالقسوة على من تحسبه مطيعالها ولأن النفس قلما تفطن إلى باعثها على الانفعال فى نصرة مظاهر الدين دون ورعه وتقواه، بل إنها قد تحسب أن الورع هو باعثها وإن كانت لا تتورع، وقلما تفطن النفس إلى أن بين الناس من يستطيعون الجمع بين المجون والقسوة والغباء وبين التدين ونشدان المثل الأعلى بالقول لا بالخلق، وهذه الاستطاعة من مآتى الحياة وربما كانت من ضروراتها المكروهة بسبب ضعف النفوس ونقصها وأوضاع الحياة التى تعيش فيها

فينبغى لمن يريد صيانة روح الدين والعقيدة المحمدية السمحة الرضية أن يحذر عند أدائه فروض الدين وفروض الحياة وأن يحاسب نفسه حساباً عسيراً عند أداء تلك الفروض أكثر من محاسبتها عند إهمالها لأن ألذ فرض وواجب وأطيبه لدى النفس وأحلاه عندها هو الواجب الذى يمكنها أداؤه من أن تؤذى الناس وأن تتشفى بأذاهم من متاعب الحياة وإن كانت لا تفطن إلى ذلك . وما أشد إتلاف متاعب الحياة لصفاء النفوس خفية

فالنفس قد تفضل أداء الواجب الذى يمكنها أداؤه من أذى الناس سواء أكان الذى تؤذيه عدواً أوغريباً عنها وإن كانت تفضل أذى الأول ، وأسمج فرض وواجب لدى النفس وأبغضه لديها هو الواجب الذى يتطلب أداؤه ترك شىء من أطايب الدنيا المادية أو المعنوية . والنفس قلما يعوزها عذر تحول به ما تجد فيه سعادة ولذة إلى فرض وواجب .

فنصرة العقيدة الرضية الزكية وصيانة روحها وقدسها من احتيال الروح الدنيوية تقتضى دراسة علم النفس وتطبيقه على النفوس وأعمالها وأساليبها ووسائلها واحتيالها للتوفيق بين القدسية والدنيوية ولو بمخادعة نفسها فلا شىء يقتل أمل الإنسانية فى صفاء الدين وقدس فضائله من احتيال أهواء النفس على النفس وتزويرها الحقائق تزويراً يخلط بين حقد النفس الشريرة وبين الغضب المقدس للحق ، ويخلط بين الباعث السامى للنفس والباعث غير السامى ، ويخلط بين صيانة روح الدين وبين التكفير عن قتل روح الدين فى طلب الأهواء بالانفعال فى نصرة مظاهره . ومن قرأ تاريخ الأديان فى العالم وجد أن بعض القبائل المتأخرة ترى مخرجاً لغرائزها الوضيعة عن طريق الدين . وفى الأمم المتحضرة يوجد أناس يسلكون فى إخراج غرائزهم التى يستحيون من إخراجها على حقيقتها مسلك تلك القبائل المتأخرة إما لجهل وإما لما يسمى فى علم النفس بالرجعية النفسية إلى صفات عصور الإنسانية الأولى وهذه الرجعية قد يصاب بها حتى المتعلمون وقد تظهر فى أمور كثيرة غير أمور العقيدة .

وهذا غير ما يخشى على قدسية الدين من رياء المرائين، وأعظم ما يدعو إلى الحسرة والأسف أن ترى روحاً صافية نقية صادقة فى غيرتها على الدين طائعة منقادة لنفس مرائية تبغى حطام الدنيا، وهذه النفس الثانية أى النفس المخادعة عادة تغلب النفس الأولى، الصافية الطاهرة لأن النفس المتلهفة فى طلب حطام الدنيا تخلق لها لهفتها وتخلق لها غيظها وخوفها من فوات الحطام انفعالاً شديداً يحاكى به الغيرة على الدين وقلما تستطيع النفس الصادقة فى تدينها محاكاة ذلك الانفعال الدنيوى الذى تمده الحياة بقوتها لأنه فى طلب أمور الحياة . وقلما تستطيع تمييزه إلا إذا كان لها نصيب من الخبرة بعلم النفس وتطبيقه على أساليب النفوس ووسائلها وهى خبرة لا بد منها لصيانة روح العقيدة المحمدية السامية .

ومن الأخطاء التى يقع فيها المفكرون وغير المفكرين أن يحسبوا أن الإنسان على مستوى واحد لا يتغير من حيث روح الدين فى نفسه ومن حيث فضائله، والحقيقة هى أن النفس الإنسانية فى الحياة كالطائرة الهوائية التى تصادف جيوباً هوائية كثيرة مختلفة الضغط الجوى فتظل ترتفع وتنخفض فجاءة، ولكن كل إنسان يريد أن يستثمر ارتفاعه لمغالطة الناس كما قد يغالطهم فى انخفاضه ويعده ارتفاعاً ويوهم أنه كذلك بقوة الإيحاء . وهو لو قصر المغالطة على قوة الإيحاء لهان الأمر ولكن أشد الضرر بروح الدين أن يتخذه المرء وسيلة للاشادة بعلو قدره وإعلان انحطاط قدر عدوه أو عدو صديقه أو عدو قريبه أو من يعاديه قريبه فيصبح الدين فى نظره قوة دنيوية للكسب كقوة المصاهرة أو المسامرة أو كقوة المال .

عبد الرحمن شكرى

حرارة الإيمان

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور



ما أرهب ذلك الجيش السائر والبحر الزاخر والجمع الثائر يخوض غمار المعركة في عزمة رجل واحد وهمة قلب صادق فلا يلبث أن يكتب له النصر ويفوز بالغلب على من تفرقت بهم الميول والأهواء! وما أروع تلك الرءوس الحاسرة والأجسام شبه العارية تجتمع في صعيد واحد تسبح الله وتناجيه فلا تخشى بأس حر ولا برد، ولا تألم من صر أو قر! وما أخشع ذلك الناسك الذي حرم نفسه لذيذ الطعام والشراب واستطاب الخشن وغليظ الثياب، وضوي جسمه من طول الركوع والسجود، واحمرت عيناه من البكاء والسهر. كل هؤلاء قد استولت عليهم فكرة وتملكتهم عقيدة، فساروا وراءها طائعين، وائتمروا بأمرها راغبين لا راهبين

وكم من أفكار نسلم بها وآراء نوافق عليها ودعوات نصغى إليها، ولكن طائفة قليلة منها فقط هي التي تنفذ إلى قلوبنا وتمتزج بأرواحنا، فتُصبِح طوع إرادتها ورهن مشيئتها، وما ذاك إلا لأن الدعوات لا تتجه دائماً إلى القلب ولا تخاطب كلها الروح؛ فمنها ما يرمى إلى غاية مادية يتشبث بها من يرجو أن يساهم فيها بنصيب، ويطمئن إليها من آثر العاجلة على الآجلة. ومنها ما يقوم على الحجة والبرهان والبحث والتعليل، ولغة المنطق لا تلائم الناس على اختلافهم ولا يسمو إليها جمهورهم وعامتهم.

لذلك كان أكثر الدعوات حظاً من النجاح ألصقها بالقلب وأقربها إلى الفؤاد، وبقدر تفاوت الدعاة في القدرة على تحريك العواطف وإثارة الشعور تتفاوت آثارهم وتزيد أو ينقص عدد أتباعهم، وعن هذا الشعور تنبعث حرارة الإيمان المتأججة، ومن تلك العواطف يتولد صدق العقيدة الباهر، وفي القلب قوى خارقة للعادة وفي الروح أسرار تلين الحديد وتنسف الجبال ولا تبالي بصعاب

هناك ضربان من الإيمان لا سبيل إلى خلطهما ولا إلى إنكارهما: إيمان العقل وإيمان العاطفة، أو إن شئت فقل: إيمان البرهان والتعليل والحجة والدليل؛ ثم إيمان الشعور والإحساس والقلب والروح؛ في أحدهما هدوء التفكير ورزانة المنطق، وفي الآخر حمية الوجدان ونشاط العاطفة. ولئن كان الأول قد استنار بنور الحجة وقوى على مجالدة الخصوم ودفع الشبه، فإن الثاني ينبعث من قرارة القلب وأعماق الفؤاد ولا يرى نفسه في حاجة إلى برهنة واستدلال، ولا يأبه مطلقاً بخصوم ولا معارضين.

والدعوات سياسية كانت أو دينية، إنما تقوم إبان نشأتها على معتنقين اتجهوا نحوها بقلوبهم وتفانوا فيها بأرواحهم، فأصبحوا ولا يعز عليهم مطلب ولا تبعد عنهم غاية. وكم سمعنا أن قائداً تسلق مع جنده الجبال واخترق البحار وخاض غمار الشرق والغرب دون أن يتخلف عنه متخلف، أو يقعد عن مناصرته الأتباع والأعوان. وكم روى لنا التاريخ من أخبار زعماء سياسيين أو دينيين كانت إشارتهم وحياً وكلمهم أمراً، إذا ما تحركوا تحركت الألوف المؤلفة، وإذا ما دعوا لبى الجميع. فإذا ما فترت الدعوة وضعفت العقيدة وخمدت حرارة الإيمان الأولى، أخذ الناس يبحثون في معتقداتهم ويملون ويناقشون ويعارضون

لهذا كان لا بد لكل عقيدة من غذاء، ولكل دعوة من مواد تلهب الشعور وتنمى العاطفة. وما الطقوس الدينية والصلوات المفروضة والأدعية الخاشعة والذكر الدائم والقرابين المتكررة، إلا وسيلة من وسائل جذب النفوس نحو عالم النور والألوهية والإيمان والعقيدة. وعلى نحو هذا يجدُّ السياسيون في إقامة الحفلات، وتنظيم الدعوات والمظاهرات، وإلقاء الخطب المثيرة للجماهير. وإذا استطاع الزعيم أن يكون سياسيًّا ودينيًّا في آن

واحد، أو بعبارة أخرى، سياسيًا وصوفيًا، توفر لديه كثير من أسباب الغلبة والفوز. وها نحن أولاء نرى زعماء العصر الحاضر يخلطون حركاتهم السياسية بآراء تتصل بالدم والجنسية والدين والعقيدة؛ فالهترية مثلاً نظرية سياسية تعتمد على دعائم روحية وصوفية، وهذا من غير شك عامل كبير من عوامل نجاحها وتقدمها. ولقد أجادت سبل الدعاية وأتقنت طرق تنظيم الأتباع إلى طوائف وجماعات يميزها زى خاص وشارات معينة، فزادها هذا تقديساً لإرادتها واستمساكاً بنظرياتها. ولعل أعون شيء على تنمية الإيمان والعقيدة أن يحس المؤمن أنه عضو في أسرة وجزء من مجتمع، وأن يشعر المعتقد أن عقيدته ذات سيادة شاملة وسلطان عام. وما نراه من تعصب أعمى أحياناً وغلو في الدين أحياناً أخرى إنما منشؤه تغلب العاطفة على العقل والرغبة في أن نحمل الناس على اعتناق كل ما ندين به من أفكار

اختلف علماء الكلام المسلمون — كما اختلف رجال الدين من المسيحيين — في حقيقة الإيمان، هل يزيد وينقص وهل هو إذعان قلبي فقط أم هو اعتقاد بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان. وكأني بهم جميعاً قد تناسوا جانبه العاطفي، ولو ذكروه ما وقعوا في كثير من خلافاتهم. فالإيمان على أنه حقيقة وفكرة قد لا يقبل الزيادة والنقص، أما الإيمان الذي هو عاطفة تتأجج لحظة وتخمد أخرى فثمت مجال فسيح لزيادته ونقصه، ويتبع هذا طبعاً أن يكون الاعتقاد قوياً أو ضعيفاً جازماً أو غير جازم. ولا شك في أن الأعمال الخالصة تنميه والأقوال الصالحة تغذيه، ومن ذا الذي ينكر ما للدعوة والإرشاد من أثر في تربية النفوس وتهذيبها وما للتقرب والعبادة من قدرة على ربط الأرواح ووصلها بعالم النور والفيض

ولا يضير الاعتقاد في شيء أن يُدفئه القلب بحرارته، وتمده الروح بأسرارها. والعواطف كانت ولا تزال، من أهم بواعث التفكير ودواعي العمل. والجماهير أخضع عادة للغة القلوب منهم للغة العقل والمنطق، ورب عاطفة قوية أعون على تحقيق غايات سامية من تفكير عميق.

ابراهيم مدكور

عن غد لهم

للأستاذ عبد المنعم خلاف



الغربيون يبحثون عن غد يشرق عليهم ضحاه وهم في سلام وطمأنينة على ميراث العلم والمدنية وقد صار نفيساً عزيزاً على الذين بنوه بضياء العيون وحر الدماء وحبس الأنفاس في المعاهد والمعابد والمعامل؛ فهم لذلك يخشون في لهفة أن يهدمه البطر والجشع في لحظة واحدة فتذهب مدخرات الإنسانية من العلم والمتاع ... ولا ينفك آباء الحضارة وعلماء الاجتماع يرسلون روادهم للبحث عن غد يوحي إليهم فيه الواقع أن ينشدوا نشيد السلام الذي سمعه الرعاة من السماء ليلة ميلاد المسيح «وعلى الأرض السلام وللناس المسرة» لأنهم وجدوا أن الواقع يكذب هذا النشيد منذ ميلاد المسيح إلى اليوم كما يقول القس إبراهيم سعيد في جريدة الأهرام عدد ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٨

ونحن المسلمين الذين يتمثل فينا العقوق لأنفسنا وللمدنية، نرى الإنسانية جاهدة في البحث عن ذلك الغد، تشقى أمام عيوننا وتشقينا معها ومع ذلك لا نحرك المفتاح في باب الكنز المرصود العجيب الذي فيه لآلئ الصباح وذهب الضحى ..

وأقسم للحق ولكل حر الفكر! أنني لا أتكلم كمسلم يقول تقليداً لقول أبيه وأمه وأمته، وإنما أقولها بعد أن أنضجتها حجج الأيام ونهض بها كل قائم في الفكر والحياة والزمان!

ولست كاهنا ولا رجلاً يحترف الدين للعيش ينادي على بضاعته

فى الأسواق ... وإنما أنا باحث كسر عنه كل قيد ليظفر بالحق خالصاً من غير تقليد ورجا أن يوفقه قيوم السموات ...

ثم أقسم أننى لا أريد أن أتملق من يسمون أنفسهم مسلمين ولا أن أسير فى مواكب أناس لا يدرون لماذا هم فيها سائرون ولا يسألون لماذا يسيرون . . . وإنما أتكلم بقلب إنسانى خالص للإنسانية . . . للقطيع الشقى الذى ما ظفر إلى الآن براحته من حل تلك المشكلات الكبرى : الاعتقاد ، والعيش ، والعمل . ولم يتفرغ بعدُ للقبض على مفاتيح الطبيعة التى خوله الله إياها لأخذ أسرارها المخبوءة فيها حتى تصعد بها روحه إلى السماء فى سلام ورضا

إلى الآن لم يظفر ذلك المخلوق التائه بنعمة الاستقرار وإتاحة الفرصة لعلمائه أن يجاهدوا فى الكشف عن عرائس أحلامه ؛ لأن كباش القطيع لاتزال تتهارش وتتغنى بمجد الأنياب والأظفار .

لا تزال خيلاء المجد مجد الديكة المنتفشة الزدهية تسوق الناس فى ضباب من الشعر إلى الجحيم .. حتى المسلمون قد أخذهم الهول من كل جانب وغشى ضباب الزمان وضلال الإنسان على عيونهم فنسوا ما بين أيديهم من العواصم ... نسوا مضخات الحريق واندمجوا فى المحترقين ...

ما الذى نملكه لإصلاح غدنا وغد الناس ؟

سأجرد الأهم من التركة فاقرأوا الأسماء :

نملك اعتقاداً صافياً ليس فيه شىء يفسد على العقل الإنسانى ألفته ؛ إذ أن إلهنا هو إله الطبيعة الذى يدرك العلماء والحكماء والفلاحون السائرون على الفطرة أسماءه وصفاته كما ندركها نحن .

ونملك سماحة فى النظر إلى القاصرين الذين لم يدركوا إدراكنا ولم يعتقدوا اعتقادنا ، لانحمل أحداً على ترك دينه إلى ديننا كرهاً .

ونملك فهماً واسعاً وتقديراً جميلاً لجهود المجاهدين من الرسل السابقين كتقديرنا لرسولنا .

ونملك سلاماً عميقاً فى أرواحنا ننشد له فى صلواتنا نشيداً لم يترك جهة من جهات الحياة إلا ألقى عليها الأمان والدعاء : فسلام على النبى ، وسلام على العباد الصالحين للحياتين ، وسلام على النفس وإيحاء لها به فى هذا الموقف العظيم بين يدى رب الحياة ودخول فى السلم كافة وجنوح إليها مع الجانحين ، وتحية بيننا سلام .

ونملك كتاباً تنزل آياته دائماً من السماء ... لأن صور الدنيا وحرب الخير والشر وتقلبات النفس فى الهدى والضلال ومظاهر المجتمع وظواهر الطبيعة هى مادة ألفاظه وهى مادة الحياة .

ونملك حلاً دائماً لمشكلة الفقر والغنى مشكلة المجتمع ... مادة الدمع والدم، مادة الدعوات والأحزاب، مادة الثورات والحروب.

ولا ندين بعصبية جنسية ولا دموية ولا لونية . ولا نقدس الوطنية والمحلية هذا التقديس الوثنى الضيق .

ونملك الرحمة بكل حى ذى كبد رطبة إنساناً أو حيواناً، عدواً أو صديقاً .

ونملك تقديس حريات الحياة فلا يهدر حق نفس فى نظامنا إلا بحق الحياة .

مأمورون بصداقة الطبيعة لأنها باب ربنا ومصدر علومنا وأستاذ عقولنا ...

أخلاقنا هى كل ما يرفع النفس ويسمو بالحياة .

محرماتنا هى كل ما يفسد الجسم والنفس .

اللذات الطيبات وزينة الحياة هى عندنا أعمال دينية إذا ذكرنا فيها اسم رب الحياة ، واستحللناها بكلمته وإذنه ، ونظرنا إليه فى متاعنا بها كما ينظر الأطفال إلى أبيهم وهم يأكلون وينعمون !

العلم عندنا تعبد ، لأنه يرينا يد الله فى كل شىء ... ويجعل لنا الطبيعة محاريب دائمة لصلاة الفكر .

***

هذا هو ميراثنا مضغوطاً فى ألفاظ معدودة يضعها كل مسلم حقيقى فى عقله وقلبه . ثم يسير فى الحياة عاملاً ساعياً للمجد والحق إلى أن تخرجه من الدنيا اليد التى أدخلته إليها ...

أفلا يرى كل عاشق للفكر والحق والسلام والصلاح أنه مضطر إلى أن يقف فى صف الحراس لهذا الميراث ، وأن يجاهد فى سبيله ما وسعه الجهاد ؟

أفلا يرى كل من يحس بنفسه ، ويفكر فى وجوده ووجود دنياه أن راحته النفسية وألفته العقلية ، ونوازعه الشريفة تتطلب منه أن يقدم جسده ليكون ثوباً لهذه المعانى تلبسه وتسى به ، وتبطش فى حرب الخير والشر ؟

أيها الملحدون من أبناء المسلمين !

هل آن لكم أن تعيدوا النظر بهدوء فى مفردات هذا الميراث لتروا أننا لسنا مخرفين ولا هارفين ، وأننا لم نعشق خيالاً ، ولم نضع ضلالاً ؟

ألا ترون أن الجهاد فى هذا السبيل إنما هو جهاد للانسانية

لا لعصبية جنسية ولا لغايات اقتصادية ، وأن خير ما تقدمونه للغرب الآن مكافأة له على جهوده فى سبيل العلم هو هذه المعانى الإسلامية التى يحتاجها بالذات ، ويرسل من أجل مثلها رواده ويرصد أرصاده ؟

إن الغرب كفر بالدين لأسباب تعلمونها ... وليست هذه الأسباب فى الإسلام ، حتى تكفروا به . وإن أفق الإسلام هو نفس الأفق الذى تتجه إليه حياة الفكر والحكمة والحرية .

وإن أصول الإسلام هى خلاصة الاتجاه الدينى فى نفس الإنسان منذ فجر التاريخ إلى الآن، هى أصول ثابتة فى الأرض فارعة فى السماء ثبات الحق والعقل .

كل ما فى الغرب جاءنا وعرفناه ؛ فما كان فيه من خير وجدناه فى ميدان الإسلام ، وما كان فيه من نقص وجدنا كماله فى الإسلام . فماذا يحملنا على خلعه وإهداره إلا الضعف والسفه ؟ ما الذى يحملنا على السير وراء قافلة ضائعة فى بيداء ونحن فى الطريق الواضحة التى عليها صُوًى وأعلام ؟

ربما يكون السبب فى تمرد بعض النفوس على الإسلام أن كثيراً ممن ينتسبون إليه الآن هم لمنات مجسمة تجمع القبح والجهل والسوء وتمشى فى الأرض مشى الطاعون ...

ولكن لأجل هذا يجب أن نجاهد ... لأجل إنقاذ الإسلام من هذه الأجساد التى تلتصق به كما تلتصق القاذورات بمحراب جميل يجب أن نجاهد ...

نريد أن نخلصه من المنتسبين إليه زوراً ونعرضه على الجاهلية كأنه حقيقة تاريخية ضائعة قد عثر عليها باحث منقب فى بطون الكتب والأسفار أو طبقات الأرض .. أجل، من مصلحة الإسلام أن يدرس على أنه نظرية ليس لها أناس يتبعونها وأن محمداً صاحب الإسلام قد ظلم فى الماضى أكبر ظلم وقع على رجل فى التاريخ ! فلقد شوه الجهلة والمتعصبون والمجرمون اسمه فى أوربا كتشويه اسم الشيطان ... كل هذا لأنه نبى رسول من الله ! والمسلمون الآن يشوهون اسمه بالجهل والذل ...

وأقسم بالعدالة ! إن محمداً لو لم يكن رجلاً إلـهياً ممدوداً بوحى الله ، وكان رجلاً بشرياً من أبطال التاريخ كالاسكندر أو سولون أو نابليون أو هولاكو ... إذاً لحظى من تقدير الأوربيين بما لم يحظ به بطل ...

إن ذكريات ابن سينا والفارابى والزهراوى وابن رشد والبتانى وغيرهم يحتفل بها فى مجامع أوربا ويدرس تاريخها بنزاهة مع أنها ثمرات ضئيلة من ثمرات محمد ... ولكن محمداً رجل الخير المطلق والحق المطلق لا تقام لذكرياته حفلات وجميات ، وإنما تلصق به كل شنيعة وعضيهة ...

بل لقد ظلم من كثير من أتباعه أيضاً ؛ لأنهم صاروا يحسبونه رجلاً من رجال الآخرة فقط ... يعد النفوس للموت وما بعده ولا يعدها للحياة هنا ، فاتخذوا القرآن أوراداً وتسابيح وتعاويذ وتمائم ، وتركوا التفكير والعمل بما فيه من آيات القوة والمجد والعزة والإعداد لهذه الحياة الدنيا ... وافتتنوا ببضائع الفكر المجلوبة من الغرب كما افتتنوا ببضائعه المادية كالأحذية والخمور ...

ولكن روح الحق لا تموت ، وعين العدالة الإلهية لا تنام ، وما كان الله ليضيع إيمان الناس وهو الذى تعهدهم بالرسالات كلما ضللتهم قوى الشر عن طريقه . ولذلك ابتدأ تزلزل عناوين النظم الأوربية ويضرب بعضها ببعض أمام أعين المسلمين حتى يعود لهم يقينهم بثبات عناوين الإسلام

ولا يزال روح الحق الذى تمثل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجذب إليه الأفكار الحائرة والقلوب الضالة التى تبحث عن الحق والسلام . فتقيم له موازين الإنصاف بعد الإجحاف . ويخطئ من يظن أن الإسلام قد انقضى عهد عزته فى القلوب والعقول ، فإن عزة الإسلام لا تكون إلا فى أيام العلم والحرية ، ولا يذل إلا فى أيام الجهل والاستبداد

ها نحن أولاء نرى من سير التاريخ الحاضر أنه كلما تقدم الزمان بالمسلمين خطوة إلى العلم والحرية ، تقدم بالإسلام إلى الحسنى

إن رسالة محمد ليست تبنة تذهب فى الريح أو ورقة جافة تحرق فى موقد ، أو بدعاً من بدع الزمان يذهب بذهاب جيل وفناء قبيل وإنما هى مَرَدُّ الحق والخير وخلاصة جهاد الذين جاءوا بهما إلى الناس من عهد آدم إلى يومهم هذا

وإن الذين يعرفون ما فى الإسلام من سعة وعمق واستيعاب يدركون تماماً أنه إنما يليق لمثل هذه الأزمنة التى نعيش فيها وما بعدها أكثر مما كان يليق بالأزمنة الماضية

وإن ما فيه من الحرية والمساواة والأخوة والتسامح والسلام والفكر لا يمكن مطلقاً أن يفهم فهماً صحيحاً إلا على ما فى عصرنا الحاضر من تجارب. فعلينا أن نفهمه ونؤمن به ونعمل له عمل المتقدمين

« بغداد — الرستمية » عبد المنعم محمد خلاف

من التاريخ الإسلامي

هيلانة ولويس

للأستاذ علي الطنطاوي



كل شيء ساكن سكون الموت ، مظلم ظلمة القبر ! ولقد أسدل الليل فروعه السود ، فغطى على المعركة اللاهبة الأوار ، وأخفى هذه الساحة المفروشة بالجثث ، وهذه الأصلاد المصبّغة بالدم ، وأرخى الستار على مشهد من أروع مشاهد المأساة التي يمثلها الإنسان أبداً على مسرح الوجود فيلبس فيها جلد الذئب وأظفار السبع وأنياب الثعبان . . . فسقط جنود المعسكرين صرعى الجهد والكلال ، وهجعوا كالقتلى لا يحسّون ولا يحلمون ، وأمست خيامهم ومنازلهم جامدة لا حياة فيها كهذه الصخور الصمّ التي تحيط بها من كل جانب . . .

وتلك هي الحرب ، آفة الحياة ، وعار الإنسانية !

تلك هي الحرب : تنفجر الأذهان بالعلوم والمعارف ، وتنفرج الأيدي عن الصنائع والمصانع ، واللطائف والزخارف ، وينفق الوالدون النفس والنفيس لتنشئة الأولاد وتهذيبهم ، فإذا استكمل البنون الفتوة والقوة ، وأزهرت الفنون وتقدمت ، وارتفعت المصانع وسمت ، وأخذت الحياة زخرفها وازّينت ، جاءت الحرب فأودت بذلك كله ، فجعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس . . .

فياويل الحرب . . . وويل لها ما لم تكن دفاعاً عن شرف أو حياة أو دين !

* * *

كل شيء ساكن سكون الموت ، مظلم ظلمة القبر ، إلا خيمة في معسكر النصارى نائية ، ينبعث من شقوقها وفرجها ضوء خافت ، ويسمع من جوفها همس ضعيف ، لو أنت أصغيت إليه لسمعت صوت امرأة تتكلم بلسان الإفرنج تقول لصاحبة لها :

— ماذا يشجيك الليلة ياهيلانة ، وما الذي جدّد أحزانك ، وهاج آلامك ؟ أفزعت من هذه المعارك العابسة التي جئنا نخوضها ونصلى نارها دفاعاً عن (قبر . . .) المسيح ؟ أم هو الحزن على لويس قد خامر نفسك ؟ لا تحزني يا هيلانة فقد كان مقدراً عليه هذا المصير ؛ ولقد عرفه ومشى إليه مطمئناً راضياً ، فاصبري يا أختاه ، فإن لويس في السماء . ألا يسرّك أنه مات في سبيل النصرانية ؟ فلا تدعي اليأس يخالط نفسك القوية في هذه الساعة التي تحتاجين فيها إلى الصبر والجلد !

وسكتت المرأة وعاد السكون يغمر الدنيا . . . ومضت فترة طويلة لم يسمع خلالها نبأة ، ولكن النور الضعيف لبث منبعثاً من شقوق الخيمة ... ثم ظهر القمر يطل على الدنيا بوجه شاحب كأنه وجه عليل مدنف ، أو ميت محتضر ، وأبدت أشعته الكليلة ما كان الليل قد ستره ، فبان من خلالها ذلك المشهد الموحش المرعب وقد زاده شحوبها وحشة وهولاً . . . فخرجت المرأة من الخيمة وجلست على مقربة منها تتأمل وتفكر ، وكانت في الثلاثين من عمرها ، ذات عينين زرقاوين واسعتين ، وشعر كستنائي اللون ، وبشرة بيضاء ناعمة ، وكانت جميلة جذابة ، ولكن في أنفها طولاً ينأى به عن الجمال . . .

كانت تنظر إلى تلك الخيام وقد انتثرت على السفوح والصخور ، وتمدّ البصر إلى جيش أعدائها المسلمين وقد احتل القلعات العالية ليحمي أسوار المدينة ويدرأ عنها ، وتفكر في هذه الحياة المروّعة التي تحياها ، فتمتلئ نفسها حسرة على حياتها الوادعة في ماضيات لياليها ، يوم كانت في قريتها المتوارية في حجر صخرة من صخور (الألب) لا تعرف إلا هذا العالم الصغير الذي يحدّه شرقاً منعطف الوادي ، ويحده من الغرب المضيق الصخري

الضيق ، ومن الشمال والجنوب غابة الصنوبر الفتانة وهى تحتضن القرية وتنبسط على السفح الجميل ، وذلك السور الصخرى يطيف بذلك كله ويمانعه ويدفع عنه الأذى . لقد كانت ترى من يوغل فى الوادى ، ويحتجب عن القرية فى ملتفاته ومنعطفاته بطلاً من الأبطال ؛ أما هذه الجلاميد ، وهذه الذرى المشرفة على القرية ، فلم تفكر يوماً من الأيام فى البحث عما وراءها ، ولم ترتق بفكرها إلى أعاليها لتتفكر ماذا فيها ... فكيف طوّحت بها الأقدار فألقت بها فى هذا العالم النائى الغريب الذى لم تكن تدرى به أو تعلم له وجوداً ! وكيف كتبت عليهـا أن تفقد زوجها الحبيب ، وأن تعيش وسط الذعر والموت ؟

واشتد بها الضيق ، وزاد بها الحنين إلى ماضيها الهانئ ، وصور لها الوهم القرية فرأتها أمامها ، وشاهدت النابة التى يقطعها فتيان القرية وفتياتها كل صباح ومساء ، ليبلغوا العين فيزدحموا عليها ليرتووا من مائها العذب النمير ، ويذهبوا ظمأ أجسامهم ، وليرتووا من العيون الأخرى فيطفئوا ظمأ نفوسهم إلى الحب ... فذكرت كيف عرفت فتاها الحبيب ، وقد رأته أول مرة على باب داره تلقاء النابة ، فأحست كأن عينيه قد اخترقتا شغاف قلبها ... ورأته بعد ذلك فى النابة ولـكنها لم تجرؤ أن تكاشفه بحبها ... وهل تجرؤ على مثل ذلك فتاة ؟ حتى كان ذلك اليوم السعيد الذى يمرّ فى موكب حياتها بهيًّا مشرقاً ، على حين تمر أيامها الأخرى شاحبات غائمات ... فجلست معه تحت تلك الشجرة المنعزلة أحلى مجلس فى حياتها ، إذ قد أعلن فيه مولد الحب بقبلة مسكرة لا تزال تحس طعمها فى فيها ، وأثرها على شفتيها ...

لقد كانت سعيدة فى هذه القرية ، تعيش فى جنـة الغرام ، لا تعرف إلا قلبها وربها ، فهى تصبح فتمشى إلى الـكنيسة لأنها لم تعرف لله بيتاً خيراً منها ، فتتوجه فيهـا إلى الله بالصلاة التى حفظتها ... وتمشى فتطوف فى النابة يدها فى يد الزوج الحبيب ، حتى تبلغ كنيسة حبها تحت الشجرة المقدسة ، فتؤدى فيها صلاة الحب على دين الغرام ، قبلة فيها (كما قال ابن أبى ربيعة) خمر وعسل !

كانت القرية كلها فى أمن ودعة ، حتى نزل بها ذلك الرجل ، فنزل بها البلاء وهبطت المصائب ، وتعكرت حياتها الصافية كأنما هى بركة ساكنة ألقيت فيها صخرة من الجبل ... كانت القرية فى ذلك الصباح مستلقية فى فراش أمنها ترشف بقية أحلام الليل اللذة ، تنهض مع الشمس فتعمل على تحقيقها ، وكانت الغابة تصلى وقد شمرت أشجار الصنوبر للعبادة عن سوقها ، ووقفت بين يدى باريها صفوفاً للصلاة ، وقامت الطير تتلو صلواتها على منابر الأغصان ، ووقف الورد والزنبق فى الحدائق خاشعاً مصغياً ، وسبّحت السواقى بحمد ربها فكان لتسبيحها وسوسة دائمة جميلة ، وأصاخ الجبلان وصمت الوادى ... فلم يفسد هـذه الصلاة الخاشعة فى معبد الطبيعة إلا صرخة تدوّى فى الوادى ، يحملها صوت مبحوح ، كأنه صوت جريح ينضح صراخه بدمه ، فيسمع الصوت أحمر قانياً يقطر دماً . وتوالت الصيحات الحر ، وازدادت شدة وهولاً ، فحملت الذعر إلى بيوت القرية وأرباضها وأوكارها وأبدلت بصباحها الباسم صباحاً كالح الوجه مربدّاً قبيحاً ، وذهب القوم يستقرون الصوت ويتقصونه ، فرأوا قساً من القسوس مكشوف الرأس ، منفوش الشعر ، قد لبس المسوح ، وطفق يلق عليهم باللاتينية تارة وبالفرنسية تارة أخرى ، ما يفهمون ومالا يفهمون ؛ وكان يمر فى كلامه (الخطر الداهم) و (المسيح) ثم عرض عليهم صورة (القبر المقدس...) الذى ينزل عليه النور ، والذى يحجون إليه ويتبركون به ... وقد قام فارس من فرسان المسلمين ، فوطئه وأهانه وجعل الفرس يبول عليه[1] ... وكان يعرضها باكياً نادباً ناتفاً لحيته ، منذراً بفناء النصرانية وضياع الدين ، ويدعو إلى إنقاذ (القبر...) من أيدى (الكفرة المسلمين...) فذهب الهياج بالعقول ، وأطار الأفئدة ، وألغت الحماسة المنطق ، ونسى الناس كل شىء إلا هـذه النار التى سرت فى العروق ، ومشت إلى الدماغ فألهبته ، فنهضوا يتبعون الراهب إلى حيث لا يعلمون ، إلى إنقاذ (قبر المسيح ...) من أيدى (الـكفرة المسلمين ...) الذين أهانوه وحقروه ! ...

وكانت هيلانة وزوجها من المؤمنين ، فلما قالوا لهما إن المسلمين أكلة لحم البشر ، وأنهم ذئاب الإنسانية ، وأنهم عدوا على المسيح .. نهضا يدفعهما الإيمان الذى عبث به القسوس ، واستغلوه وأوقعوا فى أبناء آدم هذه الذبحة المروعة ، فأخذا الطفل الوليد وساروا مع الجموع — نحو بيت المقدس ...

(١) كذا جاء فى التاريخ .

وعاودتها ذكرى زوجها الحبيب ، فانفجرت باكية ، فأيقظ صوتها صاحبتها فخرجت تراها ...

— مالك يا هيلين ؟ لماذا تبكين ؟ لم لم تنامى ؟

فلم تجب واستمرت تبكى ، فعادت ترفه عنها وتواسيها .

— ماذا عراك يا هيلانة ؟ أجيبى ، كلمينى ، لا تقتلى نفسك بسكوتك .

— لويس !

وخرج اسمه زفرة متصعدة من أعماق القلب ، غارقة بالدمع ، وعادت تبكى .

— اصبرى يا أختاه . إنه فى السماء ، ثم إن عندك لويس الصغير ، ألا تسمعين كيف يبكى ؟ إنه ابنه يا هيلين ، ابن الحبيب ، فعيشى من أجله . أريه ألوان السرور والمرح ، تسعد روح لويس فى سمائها . هاك الطفل يا هيلانة ، ألا ترين أن بكاءك يؤلمه ؟

فأخذت هيلانة الطفل ، تضمه إلى صدرها ، وهى مغمضة العينين ، وتقبله فى عنقه الدافئ ، وتمرغ وجهها فى صدره ، ثم تضع خدها على خده ، وهى تهمس باسم لويس ، كأنما تذكر فيه مولد الحب وقبلاته الأولى ...

— ٢ —

وهجعت هيلانة وصاحبتها ، وانطفأ هذا النور الكليل الذى كان ينبعث من الخيمة ، ومرت من الليل ساعات ...

وكان معسكر المسلمين صامتاً مظلماً لا يرى فى خلاله إلا النور الذى يسطع من خيمة السلطان ، وكان الجند نائمين يستريحون من عناء النهار الماضى الذى خاضوا فيه حرباً من أشد ما عرفوا من الحروب ، وبذلوا جهد الجن حتى استطاعوا أن يشقوا الطريق إلى (عكا) المحصورة ، وكان المدد يتتالى على جيش العدو من البحر ، وكاد يجزع المسلمون عندما رأوا الأمداد ، ولكن منظر السلطان ثبتهم ، فقد كان ينظر إلى المراكب تحمل الصليبيين إلى البر ، فلا يثنيه مرآها ولا يدخل الروع إلى قلبه ، بل كان يراها مستبشراً متفائلاً مؤمناً بنصر الله . ولقد خبّر القاضى ابن شداد رفيق السلطان الجند وقص عليهم أن السلطان عدّ بنفسه من العصر إلى الليل سبعين مركباً نزلت إلى البر تنقل المدد والذخيرة فما ضعف ولا اضطرب ، ولا تغير اعتقاده بالله الذى يعتقد بأن النصر من عنده . وكان السلطان أشد القوم تعباً لأنه كان يباشر أمور الحرب بنفسه ، وينتقل خلال المعركة ، ويعرض روحه للمهالك ، ثم يبيت الليل ساهراً يدبر أمور المسلمين لا يبالى راحته ولا صحته فى سبيل إعلاء كلمة الله .

فى تلك الساعة كنت تلمح رجلين يتقدمان فى الظلام يريدان معسكر المسلمين ، وهما يخطوان بحذر ، ويقفزان على الصخور بخفة ونشاط ، وقد حمل أحدهما هنة صغيرة ملفوفة بخرقة بيضاء قد ضمها إلى صدره برفق، وأحاط بها يسراه بعناية، وأمسك بيمناه السيف مصلتاً خشية أن يفجأه كمين أو يعرض له عدوّ فى هذه الظلمة الحالكة، وكانا صامتين . فلما جاوزا (اليزك) ودخلا معسكر المسلمين وأمنا ، وضعا السيوف على الأرض وجلسا يستريحان وقد أبقى الأول حمله على ذراعه وأحاطه بطرف ثوبه مبالغة منه فى العناية به ، وقال لرفيقه :

— ماذا ترى السلطان قائلاً لنا ؟ أتراه راضياً عن عملنا وهو الذى أوصانا ألا نعرض للنساء والأطفال ، وألا نمس الأعزل بسوء ، وأن ندع القسوس ، ولم يسمح لنا إلا بسرقة المحاربين والجند ؟ أفلا تحسبه يكره ما أتينا هذه الليلة ويكون غضبه علينا أضعاف رضاه عنا يوم سرقنا ذلك القائد من فراشه ؟

فأطرق الثانى كأنما كان يفكر فى غضب السلطان ، ويبحث عن سبيل الخلاص من هذه الوهدة التى سقطا فيها ، ثم رفع رأسه فجأة وقد أشرق وجهه بنور الأمل وقال له :

— لماذا يغضب ؟ أليس الله قد أباح لنا أن نردّ العدوان بمثله ؟ أما بدأونا هم بمثل هذا أول مرة ، وروّعوا نساءنا وسرقوا أطفالنا فلما صبرنا عنهم وترفعنا عن مقابلتهم بمثل فعلهم ، ظنوا ذلك عجزاً منا فأوغلوا فى عدوانهم الآثم الدنئ ؟ أفندعهم يفعلون ما يريدون لا نمدّ إليهم يداً ؟

واطمأن الأول إلى هذه الحجة ، فقاما يسيران فى هذه البقاع التى كانت فيما مضى رياضاً زاهرة وتلالاً خضراء معشبة ، فجعلتها الحرب قفراً خالياً ، وقبراً واحداً مفتوحاً ، وألبستها ثوباً دامياً من أشلاء أبنائها ، حتى بلغا خيمة السلطان فوجداها مضيئة فعلما أنه لم ينم ، ووقفا ينتظران الإذن ليعرضا عليه ما جاءا به ، لأنه كان يطلع بنفسه على كل كبيرة وصغيرة ...

وصرت ساعة ومال ميزان الليل وهما واقفان ، فسمعا حركة ورأيا رسولاً يحاول أن يدخل على السلطان وهم يمنعونه حتى أنبأهم أنه يحمل رسالة خطرة مستعجلة لا يجوز تأخيرها ، فخبر السلطان فسمح له وقابله على خلوة لم يكن فيها إلا ابن شداد القاضي ثم خرج الرسول على عجل ، وخرج من بعده ابن شداد معلناً أن السلطان سينام قليلاً ، وكان ذلك في السحر ... فأيس الرجلان من لقائه وذهبا ينتظران الصباح

ولما كان الصباح ذهب أول الرجلين يلقى القاضي ابن شداد يسأله عن أمر السلطان، وكان صديقاً له ، فحدثه أن الرسول حمل إلى السلطان نبأ مروّعاً هو أن جيشاً من الصليبيين الألمان يزحف نحو الجنوب في عدد هائل ، فلم يستطع أحد من أمراء المسلمين في الشمال أن يرده أو يقف في وجهه فأصبح المسلمون بين نارين

تفكر السلطان في الأمر ، ثم جمع الملوك والقواد ولم يكن يقطع أمراً دون مشورتهم ، فهبوا من فرشهم ، وجفوا راحتهم في هذه الليلة العصيبة التي يلتمس الراحة في مثلها أشد الناس مراساً ، وأكثرهم صبراً ، فلما اجتمعوا عرض عليهم الأمر ، فبذلوا له طاعتهم ، ولكنهم تهيبوا الإقدام على هذين الجيشين ، واضطربوا لهذا الخطب الذي لم يتوقعه أحد منهم ، ولم يكن هؤلاء الملوك والقواد من الجبناء الرعاديد ، بل كانوا أبطال الحومة ، وسادة الجلاد ، ولم يفقدوا الإيمان الذي قابلوا به جيوش أهل الصليب كلها حين جاءت يحدوها التعصب الذميم ، ولا الشجاعة التي ردّوا بها هـذه الجحافل الجرارة ، وقسموها قسمين ، قسم مصرَّع على الثرى قد ذهب ضحية العدوان الآثم ، وقسم طائر على وجهه فزعاً لا يدرى أين المحط ، فتصدّع الخميس العرمرم تحت ضرباتهم المسـددة وهتافهم المظفر ، كما يتصدع القطيع من الغنم إذا سمع صوت الأسد وأحس أنيابه ... ولم ينسوا طعم النصر الذى ذاقوه، ولا النهاية الماجدة التي ختمت بها الوقائع الماضية التي خاضوا غمرتها ، ولكن لم يكن في تلك المعارك مثل هذا الخطب العابس الذى حمل نبأه الرسول ... فغاضت الحماسة من صدورهم وإن لم تنفد ، وسكنت قليلاً لتستجم وتنهض من جديد؛ أما نفس السلطان فلا تنى ولا تلين ، وحماسة السلطان لا تبلغ منها خطوب الدنيا كلها ، وإنهم لمن العظماء ذوى النفوس الكبيرة ،

ولكن أنى لهم بمثل نفس السلطان وخلاله البارعة وبطولته الفذة التي تحققت مرتين فقط في تاريخ البشر كله: في عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي ، ولم تعرف في غيرهما إلا خيالاً يلوح ولا يظهر ، وإشارات تلمح ولا تبصر !

فلما رأى السلطان هيبتهم صرفهم . ولبث وحده مهموماً يفكر ...

قال الرجل : فماذا فعل السلطان كان الله له ؛ كم يحمل وحده من الأهوال التي تخرّ تحتها الجبال ، وتعجز عن حملها الأمم !

قال ابن شداد : جلس يدبر أمره ، ويرسم خطط القتال وهو مهموم قد أخذ منه التعب والنعاس ، وأنا أنظر إليه ليس معنا ثالث إلا الله ، فسألته أن ينام ساعة فيستريح ؛ فظن أنى قد نعست فقال لى : (لعلك جاءك النوم .) ونهض ... فخرجت أمشى إلى خيمتى فلم أصل إليها وآخذ في بعض شأنى حتى أذن الصبح . فعدت لأصلى معه على عادتى ، فوجدته يمر الماء على أطرافه فقال لى حين نظر إلىّ : (ما أخذنى النوم أصلاً) فقلت : قد علمت . قال : من أين ؟ قلت : لأنى ما نمت وما بقى وقت للنوم

ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه ، وجعلت أفكر في أمره وما يحمل من الهمّ وما ورد عليه من الشدة وذكرت أن قتيبة بن مسلم وقع في إحدى الشدائد وهو يحارب الأتراك وضاق به الأمر ، وتكاثر عليه العدو ، وبذل كل ما يستطيع من القوة والمكيدة فلم يغن ذلك عنه شيئاً. فقال: أين محمد بن واسع؟ قالوا: هو في أقصى الميمنة جانح على سية قوسه يومى بأصبعه نحو السماء. فتهلل وجه قتيبة واستبشر ووثق بالنصر ، وقال : والله لتلك الأصبع الفاردة أحب إلىّ من مائة ألف سيف شهير وسنان طرير. فلما فتح الله عليهم قال له : ما كنت تصنع ؟ قال كنت آخذ لك بمجامع الطرق

وذكرت أن قواد المسلمين الذين دوخوا العالم ، وأخضعوا الممالك ، وملكوا الأرض ، لم يملكوها بقوتهم وعددهم وإنما ملكوها بإيمانهم والتجائهم إلى الله ، ورأيت السلطان قد وقف حياته على الجهاد في سبيل الله ، وباع نفسه من الله ، ولم يقصر في فريضة ولم يهمل نافلة ، بل كان ينزل حيثما أدركته الصلاة فيصلي ويسمع الحديث بين الصفين ، ولم يعرف عنه ميل إلى دنيا

أو حرص على لذة من لذائذ العيش . فأيقنت أن دعاءه لا يرد ، وأنه هو الولىّ إن عدّ الناس الأولياء، وهو التقى إن ذكر الأتقياء. فقلت له : قد وقع لى واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله

قال : وما هو ؟ قلت : الإخلاد إلى الله ، والإنابة إليه ، والاعتماد فى كشف الغمة عليه

قال : وكيف نصنع ؟ قلت : اليوم الجمعة، يغتسل المولى ويصلى ويتصدق بصدقة خفية على يد من يثق به ويدعو الله وهو ساجد فيقول : « إلهى قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك. أنت حسبى ونعم الوكيل »

وإن الله أكرم من أن يخيب من يلتجئ إليه !

— ٣ —

وقطع القاضى حديثه ونظر إلى تلك المرأة التى أقبلت تريد خيمة السلطان ، وهى سافرة تصيح بلسان الافرنج وتعول باكية تشير إشارات الفزع المروّع، فأقبل عليها يسألها ماخطبها ...

وكانت هيلانة بذاتها ، أفاقت فلم تجد طفلها فخرجت من الخيمة جاحظة العينين مجنونة تصيح باسم ولدها وهى تعدو على غير هدى، تسير فى كل سبيل تسأل كل من ترى عن ولدها هل رأى ولدها؟ أين ذهب ولدى ؟ ماذا أعمل ؟ ساعدونى . فتشوا لى عن ولدى . أين ذهب ؟ هل مات ؟ من أخذه ؟ أأكلته الذئاب ؟ هل تدخل الذئاب إلى المعسكر ؟ أم قد سرقه اللصوص ؟ آه أين أنت يا ولدى؟ ألا تردونه علىّ ؟ ارحمونى يا ناس . فتشوا لى عن ولدى ...

وانطلقت تعدو فى أرجاء المعسكر ، حتى بلغت خيمة القواد فاقتحمتها ، وهبطت على أقدامهم تولول وتصيح ... فأخذتهم الشفقة بها ولكنهم كانوا عاجزين عن معونتها. فصمتوا ، وبالغت فى البكاء والتوسل ، فرأى قائد منهم أن يبعث بها إلى صلاح الدين

— إن الرجل شهم وشريف ، وفارس نبيل ، وما نحسبه يسد أذنيه دون شكوى امرأة مفجوعة تسقط على قدميه باكية ذليلة ترجوه أن يردّ عليها ولدها الوحيد ... وهو الذى قبض بالأمس على قائد الحملة الفرنسية ، فلما صار بين يديه وانتظر القتل لم ير منه إلا الإكرام والإحسان، خلع عليه وقدّمه ورفع مجلسه وسيّره إلى دمشق معززاً مكرّماً ، فلم يستطع القائد أن يرفع بصره إليه لعجزه عن شكره ، ولخجله من نفسه حين قابل بين صنيع السلطان به ، وصنيعه هو بمن أسرهم من قواد السلطان ...

ووافق القواد على ما وصف به صلاح الدين من النبل والشرف والإنسانية، فسيروا المرأة إليه، فانطلقت تعدو حتى تقطعت أنفاسها وهى تتحامل على نفسها وتعود إلى السعى تريد أن تقطع الطريق كله بوثبة واحدة ترى من بعدها ابنها ، أو يكون فيها حتفها ، وتخشى أن تتأخر لحظة فيصيب ابنها شر ... يا رحمة الله على الأمهات ! وكانت نفسها كالبحر الغضبان لا تستقر فيه موجة حتى يموج موجة أخرى ... وكانت الصور تتردّد على نفسها متعاقبة يأخذ بعضها بأعقاب بعض، فبينا هى تتصوّر فرحها بلقاء الطفل فتقدم مسرعة ، إذا بها تفكر فى هلاكه فتقف لحظة كأنما لطم وجهها القدر بكفه ، ولكنها تطرد هذه الصورة من نفسها ولا تطمئن إليها، ويعاودها الأمل قويًّا منيراً، ويخالط الأمل خوف وإشفاق ، ثم تمرّ عليها صور من حياتها الأولى تجوز آفاق نفسها بسرعة البرق فتهزها هزًّا عنيفاً ثم تمضى إلى غايتها وترجع صورة الولد فتحتل خيالها كله ...

حتى بلغت (اليزك) فصاحوا بها : قفى . فوقفت تنظر ماذا يريدون ... ولم تكن تدرى ما (اليزك) وما الحروب، وما جاء بها إلا إيمانها الذى استغله دعاة الشر وسخروها من أجله لمنافعهم فحرموها زوجها وطفلها وجرعوها كما جرعوا الآلاف المؤلفة من البشر غصص الآلام !

وجعلت تصرخ. فهم صراخ اللبوة التى فقدت أشبالها ، وتخاطبهم بالفرنسية :

— ابنى ، ابنى أيها الجند ؟ ردّوه علىّ ، أريد ابنى ، فلماذا تمسكونه ؟ لماذا تعذبون امرأة مسكينة ؟ أين هو ؟ هل قتلتموه ؟ لا ، لا أرى على وجوهكم سمات الوحشية . إنى ألمح الشفقة على هذه الوجوه ، فلماذا لا تردون علىّ ابنى ؟

فلا يفهمون منها شيئاً ، فتعود إلى صراخها حتى جاء رجل منهم يعرف لسانها فسألها :

— ومن هو ابنك أيتها المرأة ؟

— ابنى لويس. لويس. أنا هيلانة. ردّوه علىّ . أريد أن أقابل السلطان .

فأخذته الرحمة فتركها تمر ودلها على الطريق إلى خيمة السلطان فذهبت تعدو

* * *

قال لها القاضي :

— ولكن السلطان الآن في شغل . يجب أن تنتظري ساعة

— لا . لا . أتوسل إليك ، أخاف أن يصيب ابني سوء ، فدعني أذهب إليه

فقال لها القاضي : اذهبي مع هذا الرجل . وأمره أن يدعها ساعة في خيمة الأسرى حتى يستأذن لها على السلطان ، وينبئه نبأها . وظنت أنها في طريقها إلى السلطان ، فسارت صامتة مسرعة ، فلما دخلوا بها الخيمة ورأت الأسرى ، عادت تصيح وتولول ، فنبّه صياحها الأسرى ، واستفاض حتى بلغ خيمة السلطان فبعث يطلبها . . . وكان في أقصى الخيمة أسير اضطرب لما رآها ووجف قلبه ، ولبث بصره عالقاً بها حتى خرجت من حيث جاءت ، فلبث مفكراً مشدوهاً ، تطفو على وجهه خيالات أفكار هائلة وذكريات بعيدة ، ثم تراخى رأسه فأسنده بكفيه ، وظل سا كناً تنطوي جوانحه على البركان . . . الذي انفجر بعد دقائق، فنهض الأسير يصرخ صراخ الوحش الكليم : أريد أن أراها ، أريد أن أراها . . .

وراع صياحه الأسرى وهم يعهدونه وديعاً كالحمل ، فأقبلوا يسألونه، فلا يأبه لهم ولا يكلمهم ، وأسرع إليه الحراس يكلمونه فلا يجيب إلا بهذا الصراخ ، فرفعوا أمره إلى السلطان وأدخلوه عليه . . . فلما احتواه مجلس السلطان طأطأ رأسه ووقف خاضعاً ، وكانت عظمة السلطان تملأ نفسه إكباراً له ، وكان يحس فيها الشكر الخالص لما رأى من إكرام السلطان في هذه المدة الطويلة التي قضاها أسيراً عنده ، ثم رفع رأسه وجعل يقلب نظره في أرجاء المجلس فوقع على هيلانة وهي راضية مطمئنة وابنها في حجرها ، وهي تنظر إلى السلطان نظرة شكر وحبّ ، ثم رآها تنهض فجأة فتجثو بين يديه فتقبل قدميه وتتقاطر دموعها ، فيتململ السلطان وينهضها . . . فلم يعد يتمالك نفسه، فأسرع نحوها على غير شعور منه ، فلما رآه الطفل هتف به : بابا . . . ووقع بين ذراعيه . . . ونظرت المرأة مبهوتة لا تكاد تصدق ما ترى ، وجعلت تنظر حولها لتتثبت مما ترى ، ولتعلم هل هي في يقظة أو في حلم ، ثم صاحت : لويس ! أنت حيّ ؟

وفهم السلطان القصة فحول وجهه حياء وتركهما يتعانقان. . .

* * *

ولما تلفت السلطان وجدهما جاثيين بين يديه يحاولان شكره ، فلا تجاوز الكلمات شفاهما إلا وهي جمجمات غامضة ، فقال لهما :

— إنا لم نفعل إلا ما يأمرنا به ديننا ؟

قالت المرأة :

— أدينك يأمرك بهذا ؟

— قال : نعم ، فإن الإسلام رحمة للعالمين ، للإنسانية كلها .

قالت : أفتضيق هذه الرحمة عن امرأة مسكينة . . . تحب أن تسعد وتحيا بسلام ، في ظلال الإسلام ؟

فتهلل وجه السلطان ، وقال لها : إن رحمة الله وسعت كل شيء .

قالت : كيف أغدو مسلمة ؟

قال : تشهدين أن الله واحد ، وأن محمداً رسول . لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

فنطقت بها ، وتلفتت إلى زوجها فوجدته ينطق بالشهادة .

* * *

وخرج ويده في يدها يذكران الماضي الحلو ، والقرية الهادئة .

— لقد تركنا البنفسج ياهيلانة مخضراً يانعاً ، فهل أزهر من بعدنا البنفسج فتضوّع أريجه في جوانب الحديقة ؟ وشجرة التفاح هل تدلت ثمارها ، وانحنت أغصانها ؟ والعين هل بقيت على صفائها . . . أواه ياهيلانة ! هل لنا من رجعة إلى ذلك الوادي السعيد وتلك النابة التي ولد حبنا في جنانها ونما واكتمل ؟

— لا يالويس، إنا لن نعود . إن يكن حبنا قد ولد في تلك النابة ، فإنه قد بعث هنا بعد ما مات . هنا غدت إليّ ، وهنا عرفت الله ، وهنا رأيت النبل والطهر والإنسانية ، فلنبق هنا يالويس . . . أليست هذه هي الأرض التي ولد فيها المسيح ؟ إننا لم نخسر المسيح ، ولكننا ربحنا معه محمداً !

* * *

وتقدم الجيش بعد ساعة ، يمشي إلى الظفر مكبّراً مهللاً ، وكان لويس في طليعة الجيش !

« دمشق » علي الطنطاوي

النواحي الإنسانية في الرسول

للدكتور زكي مبارك



أعتقد أن شخصية النبي محمد لم تُدرس حق الدرس إلى اليوم في البيئات الإسلامية لأن المسلمين يجعلونه رسولاً في جميع الأحوال : فهو لا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحي من الله، ولا يأخذ ولا يدع إلا بإشارة من جبريل

ومعنى ذلك أن شخصية محمد في جميع نواحيها شخصية نبوية لا إنسانية

يضاف إلى هذا أن جمهور المسلمين يعتقدون أن النبوة لا تُكتسب ، وهم يعنون بذلك أنها لا تنال بالجهاد في سبيل المعاني السامية ، وإنما هي فضل يخص الله به من يشاء

وإنما غلبت هذه العقيدة لأن الإسلام نشأ في بيئات وثنية ، أو خاضعة للعقلية الوثنية ، والرسول لم يَشُقّ بين قومه إلا لأنه حدثهم بأنه بشرٌ مثلهم ، ولو أنه كان استباح الكذب لحدثهم بأن فيه عنصراً من الألوهية لوصل إلى قلوبهم بلا عناء

***

الواقع أن محمداً كان آية من آيات التاريخ ، ولكن كيف ؟

لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . فبنو آدم يصلحون لكل شيء إلا سماع كلمة الحق

أراد الله أن يكون الإسلام إعزازاً للفكرة الإنسانية، ولكن بنو آدم يؤذيهم ذلك ؛ لأنهم خضعوا لألوف أو ملايين من الأوهام التي تشل القلوب والعقول

كان محمد إنساناً بشهادة القرآن ، والقرآن كتاب سماويّ نص على أن محمداً إنسان ، وبنو آدم يؤذيهم أن يتلقوا الحكمة عن رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق !

وفي غمرة هذه الضلالة نُسيت النواحي الإنسانية في حياة الرسول وإلا فمن الذي يصدق أن رجلاً مثل محمد يضيع من عمره أربعون سنة بلا تاريخ ؟

ولأي سبب ينسى الناس أو يتناسون تلك المدة من حياة الرسول ؟

إنهم يصنعون بتاريخ الرسول ما صنعوه بتاريخ الأمة العربية لأنهم أرادوا أن يخضعوا خضوعاً تاماً للمعجزات ، فالنبي لم يكن رجلاً عبقرياً وإنما خصه الله بالرسالة فكتب له الخلود ، والعرب لم يكونوا أمة قوية وإنما ارتقوا بفضل الرسول

وما يجوز عند جمهور المسلمين أن يقال : إن الله خصّ محمداً بالرسالة ، لأنه كان وصل إلى أسمى الغايات من الوجهة الإنسانية ، ولا أن يقال : إن الله اختار ذلك الرسول من العرب، لأنهم كانوا وصلوا إلى غاية عالية من قوة الروح .

***

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أمشي على الشوك وأنا أقيد هذه الفكرة الفلسفية ، لأن بني آدم يحتملون جميع الأفكار ، إلا الأفكار المتصلة بحيوات الأنبياء

ثم ماذا ؟

كان محمد إنساناً قبل أن يكون نبيًّا ، وذلك من أعظم الحظوظ التي غنمها في التاريخ ، فسيأتي يومٌ قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية ، ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد .

كان محمدٌ في سريرة نفسه إنساناً يخطئ ويصيب ، بدليل ما وُجِّه إليه من اللوم أو العتاب في القرآن ؛ وهو قد خضع للضعف الإنساني فذرف الدمع السخين يوم مات ابنه ابرهيم ، وهو

قد عانى الحب والبغض كسائر الناس ، وهو قد توجع من ظلمات الخطوب، وهو قد تألم من غدر الأصدقاء، ثم لم ينج من الكرب عند سكرات الموت

***

أحبك أيها الرسول !

أحبك لأنك كنت إنساناً له ذوقٌ وإحساس ، ولم تكن كما يصوِّرك الجاهلون الذين رأوا عظمتك فى أن تكون حاكياً لوحى السماء ، وما أُنكر وحى السماء ، ولكنى أومن بأن فى السريرة الإنسانية ذخائر من الصدق والروحانية ، وأنت أول نبى أعز السريرة الإنسانية .

أليس دينك هو الدين الذى تفرد بالنص على أن المرء يتصل بربه بلا وسيط ؟

أحبك أيها الرسول وأشتهى أن أتخلق بأخلاقك السامية . أحب أن أكظم غيظى كما كنت تكظم غيظك . أحب أن أسلم بجهادى من شهوات النفس كما سلمت بجهادك من شهوات النفس . أحب أن أفرّ من الشيطان كما فررت من الشيطان، على شرط أن أحب الحياة كما أحببت الحياة

أتدرى لماذا أحبك أيها الرسول ؟

لأنك أول من شرع الديمقراطية بين الأنبياء . ألست أنت الرجل الذى كان يتبذل فى أكله ويقول :

« إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد »

أتدرى لماذا أحبك أيها الرسول ؟

أحبك لأنك جعلت الحرب فى سبيل الحق شريعةً من الشرائع وهى مزية إنسانية ، وكان الأنبياء من قبلك يكتفون بالتفكير فى عجائب الملكوت !

أحبك لأنك أعلنت حبك لطيبات الحياة واحتقرت الرهبنة والانزواء فى المعابد والصوامع

أحبك لأنك انتقلت من المعلوم إلى المجهول

أحبك لأنك أعززت الشخصية الإنسانية يوم اعترفت بأنها صالحةٌ للخطأ والصواب

ولكن ما رأيك فيمن يقاومون الحرية الفكرية باسم الغيرة على دينك ؟

ما رأيك فيمن لا يرضيهم أن تكون إنساناً يتذوق أطايب الحياة ويلهو أحياناً بالمزاح المقبول ؟

ما رأيك فيمن يحاربون الفنون والآداب باسم الدين ؟

ما رأيك فيمن يتوهمون أن الشخصية النبوية مجردة من البهجة والأريحية ؟

ما رأيك فيمن يُخرجون من فردوس العقيدة الصحيحة كل من يتّسم بسمة الحب لأطايب الحياة ؟

أنت حاربت الزهد ، وحاربت العبوس ، وحاربت اليأس ، ولكن بعض الناس يرون الإيمان لا يكمل إلا عند من يغرقون فى لجج المسكنة والكآبة والقنوط

كنت إنساناً أيها الرسول قبل أن تكون نبيًّا ، وتلك الإنسانية هى التى فتحت صدرك للصفح عن هفوات الناس ، وهى التى جعلتك تنظر إلى ضعفهم بعين العطف ، وهى التى قضت بأن تذوق ملوحة الدمع فى بعض الأحيان

أنت نزهت نفسك عن الشعر ، الشعر المحبوس فى قواف وأوزان ، ولكنى لا أنزهك عن الشاعرية العالية التى تواجه الوجود بنظر ثاقب ، وقلب حساس

وكيف تخلو من الشاعرية وقد خلوتَ إلى مناجاة القلب فى غار حراء ؟

كيف تخلو من الشاعرية وقد كنت رجلاً خلاَّ يجيد اقتراع المعانى ؟

أنا أعرف لماذا نزهت نفسك عن الشعر أيها الإنسان الحساس إنما نزهت نفسك عن الشعر لأن الشعراء فى عصرك لم يكونوا عظماء الأرواح

وإلا فأى شعر فاتك وأنت تدعو إلى التفكير فيما خلق الله من غرائب وأعاجيب ؟

أى شعر فاتك وأنت تجعل السير فى الأرض من واجبات الرجال؟

أى شعر فاتك وأنت الذى أشار بالأفضلية فى الإمامة لمن وهبهم الله حسن الوجه وجمال الصوت ؟

أى شعر فاتك وكان شخصك الكريم قيثارة تتغنَّى بمحاسن الوجود ؟

***

الآن عرفتُ لماذا يضن عليك بعض أتباعك بصفة الإنسانية، إنما فعلوا ذلك لأنهم فى ذات أنفسهم لا يؤمنون بعظمة

الإنسانية ، أما أنت فقد رميت بالكفر كل من يريد أن يخلع عليك ثوب الألوهيــة لأن الله خصك بأجمل مزية من مزايا الإنسانية وهى الصدق

لقد فكرتُ مرات كثيرة من الاقتراب من روحك فلم يعقنى عائق لأن بينى وبينك وشيجةً من الإنسانية

ودعانى الشوق مرة إلى مسامرة خيالك فرأيتك إنساناً كاملاً لا تقع عينه على غير الجميل من شمائل الأصدقاء

وصحبتك مرةً فى بعض غزواتك فهالنى أن تكون رجلاً نبيلاً يصبر على الظمأ والجوع والأذى فى سبيل الحق

وشهدتك وأنت تعانى الكرب من فضول الناس وتزيّد المنافقين وتقوّل السفهاء فعرفت أنك إنسانٌ ممتاز ، لأن الابتلاء بأذى الناس لا يكون إلا من حظوظ الممتازين بين الرجال

وشهدتك يوم الموت وأنت تواسى ابنتك فتقول: «لا كرب على أبيك بعد اليوم » فعرفت أن الكرب فى الدنيا مقصور على عظماء الرجال

شهدتُ من أخلاقك وشمائلك ما شهدتُ ، أيها الإنسان الكامل ، فزدتُ اقتناعاً بأنك على خلق عظيم

ولكن ما هى العظمة فى خلقك ، أيها الرسول؟

أنت رويت القرآن عن جبريل فيما يقول المؤمنون ، وأنشأت القرآن فيما يقول الملحدون . وهــذا القرآن فيه لوم كثير وجه إليك ، فإن كان وحياً من السماء فأنت غاية الغايات فى أمانة التبليغ ، وإن كنت أنت منشئٌ ذلك الكتاب كما يقول الملحدون فأنت غاية الغايات فى أدب النفس ، لأنك سجلت ما آخذت به نفسك فى كتاب مجيد

وأين الرجل الذى يدين نفسه بنفسه كما صنعت أنت حين رويت القرآن أو حين أنشأت القرآن ؟

لقد وضعت أعظم دستور للسريرة الإنسانية ، وهو دستور الصدق ، يا أصدق من عرف التاريخ من الرجال

***

أما بعد فقد ارتاض القول بعد جموح ، وصار من السهل أن أحكم بأن النبوة عهد من عهود العظمة فى الطبيعة الإنسانية ، ولولا خوف الفتنة لردت هذا المعنى تفصيلاً إلى تفصيل

محمد إنسان ، ولكنه إنسان مظلوم ، لأن أتباعه جردوه من فضل الاجتهاد فى سبيل الخير والحق والجمال

وهنا تظهر مزية جــديدة لذلك الرسول هى نكران الذات ، فلو كان محمد رجلاً من أمثال فلان وفلان وفلان من الذين نقلوا أممهم من حال إلى أحوال لملأ الدنيـا بالحديث عما وضع للحياة من أصول وقوانين

ولكن محمدا كان يحبّ أن يعيش مسكيناً وأن يحشر بين المساكين ، وقد جزاه الله خير جزاء ، نخصه بالعظمة فى الحياة وبعد الممات

محمد بشرٌ مثلكم يا بنى آدم ، وقد دعاكم إلى التخلق بأخلاقه ، ولم يكتف بذلك، بل دعاكم إلى التخلّق بأخلاق الله إلا الكبرياء

فهل رأيتم إنسانية مثل هذه الإنسانية ؟

محمد تحدث عن هفواته — إن كان له هفوات — ليدلكم على أن العظمة الحقيقية لا تكون إلا باتهام النفس والحذر من طغيان الأهواء

كان محمد يقول فى صدر خطبته « أيها الناس » أو «يا عباد الله» وأنتم تقولون فى صدور الخطب « أيها السادة » أو « سيداتى ، سادتى » .

فتأملوا الفرق بين العبارتين لتعرفوا أنه كان يبتعد عن تملق الأهواء .

استطاع محمد أن يتحدث عن هفوات الأنبياء ، وعجزتم أنتم عن الحديث عن هفوات الزعماء

فاعرفوا — إن شئتم — أن عظمة محمد من الوجهة الإنسانية هى تمجيد الصدق والخوف من زيغ القلوب

قد تقولون : إن الله أوحى إليه أن يكون كذلك .

وأجيب بأن أكمل خصيصة من خصائص الرجال هى الصلاحيةُ لتقبُّل وحى السماء .

وللسماء وحيٌ فى كل وقت ، ولكن أين القلوب التى تسمع ؟

إن محمداً حدثكم بأن الرجل يستطيع أن يخاطب ربه بلا وسيط .

فأين المسلم الذى فهم أسرار الحروف واتجه بقلبه إلى مناجاة فاطر الأرض والسموات ؟

أين المسلم الذى تأدب بأدب الرسول فعرف أنه مسئول أمام الله لا أمام الناس ؟

***

والآن أرجع إلى نفسى فأقول :

في غار حراء

مهبط الرسالة

للأستاذ محمود الخفيف



أين من قدرك جهد الشعراء   يا قرين الطور في نجوى السماء؟

أشفق الشعر ، وكم راودته   تجرى كالصبح بسام الرؤى

زاهر الصفحة رفاف الرواء

كان محمد إنساناً ، ولكنه كان أعظم من جميع الناس لأنه لم ير الغنيمة فى غير المعنويات .

كان محمد يستطيع أن يبنى لنفسه داراً تشبه إيوان كسرى ؛ وكان يستطيع أن يبنى لنفسه قبراً يشبه هرم فرعون ، ولكنه آثر أن يحيا ويموت وهو فى متربة المساكين .

إن محمداً ظلم نفسه لينتصر ويفوز ، وقد انتصر وفاز .

إن محمداً حرم نفسه أبهة الملك ، وباسمه عاش الملوك .

إن محمداً حرم نفسه الشهرة بإجادة البيان ، وبفضل الكتاب الذى بلّغه عاش البيان . فيارسول الله ويا إمام العرب والمسلمين إليك أوجّه أصدق الثناء .

زكى مبارك

طاب للسامر يا شعر النشيد   وهفا المزمار للحن الجديد

هات يا شعر حديثاً طالما   ملأ الأعصر وحياً ومشى

ملء سمع الدهر لحناً وحداء

هيه ... صغ لحنك فى أم القرى   أعبر الأجيال واطو الأعصرا

إقطع البيد إلى منعزل   التقت فيه السموات العلى

مرة بالأرض فى غار حراء !

غننا عن شاهق عالى الجبين   تتملاه عيون الناظرين

هرمى نازع مستشرف   للسموات ، منيع المرتقى

للعلى رمز وللحق لواء

جبل النور الوضىء النسب   لقب يا حسنه من لقب !

أين فى الأرض مكان مثله   بينات الله فيه والهدى

لمعت فانجاب فى الكون العماء ؟

مهبط النور على هذا الوجود   مرتقى أوحى له معنى الصعود

شد ما يملأ نفسى سحره   ولكم تلمح روحى من رؤى

ومعان عبقريات وضاء !

هات ألحانك عند الجبل   غن يا شعر به لا تحفل

امتلئ ما شئت من روعته   إلتمس وحيك فى هذا السنا

وترنم ، يحل يا شعر الغناء

هات حدثنا عن الراعى الأمين   ذلك الأمى ، عند الأربعين

ذلك الأمى من علمه ...   غن فى بيدائه كيف اهتدى

واجتلى فى الأرض آيات السماء ؟

يا رمال البيد هذا جاهد   هادئ النظرة ماض صاعد

يا رمال البيد كم شاهدته   يحمل الزاد ويمضى ؛ هل رأى

حوله غير الرواسى والفضاء ؟

يهمس الرعيان ... ما يشغله   أى أمر حازب أذهله ؟

شاحب الوجنة لا من علة   مطرق هامته ، وانى الخطى

طال فى الله به عهد الرجاء



(غار حراء)

يا لهذا العربيّ الصائم ابنِ عبدِ الله، أزكى هاشمِ
بلغ الغارَ فألقى زادَهُ يا لَهُ من لاغبٍ طاوي الحشا
أكثرُ الزادِ له تمرٌ وماء!

يا نجومَ الليلِ أضناهُ السهرْ لم ينلْ من طرْفهِ طولُ النظرْ
هلْ أتى مكّةَ ما أرّقَهُ؟ حسبُها من ليلِها طيبُ الكرى
يغرقُ السمّارُ فيه السعداء!

إيه شمسَ الصبحِ، يا نورَ الأزلْ هلْ جلاكِ اللاتُ يوماً أو هُبَلْ؟
اسألى مكّةَ عن أصنامِها اسألى السادةَ في أمّ القرى
عن تماثيلَ لها حقُّ الولاء!

حدّثِي يا شمسُ عن أنصابها وأولي الغفلةِ من أصحابِها
حدّثى عن ظلمةِ العيشِ بها وعن الشحناءِ فيها والخنا
وذوي الفحشِ بها والخيلاء

تؤثِرُ الليلَ على الصبحِ اتجاها كلُّها يسبقُ في الشرّ فتاها
بلدةٌ كم غرّها باطلُها ليسَ في شرعتِها إلا الهوى
شرعةِ الجورِ ودينِ السفهاء

لاذَ بالوحدةِ في عزلتِهِ ذلك الواحدُ في نشأتِهِ
ذلكَ انفردُ من أيامِهِ ما دعا داعي الصبا إلا أبى
وتولّي وهوَ موفورُ الإباء

كمْ يعاني اليومَ مما يحملُ لاذَ بالغارِ ففيهِ الموئلُ
هاجسٌ في نفسِهِ يشغلُهُ ينسخُ اليأسَ بهِ لمحُ أُنى
ساعةً ثم يغشّيهِ الخفاء

يا لعانٍ يعظمُ الكونُ لهُ كمْ يرى الرهبةَ فيما حولَهُ
كمْ لهُ في صبحِهِ إذ ينجلي ثمّ في الليلِ إذا الليلُ سجا
من يقينٍ وجلاءٍ واهتداء!

هذهِ الأفلاكُ من يمسكُها في الفضاءِ الرحبِ من يسلكُها؟
والرواسي الشمُّ من شيّدَها من دحا الأرضَ ومن ساقَ الحيا
فسقى التربَ بهِ حيثُ يشاء؟

مَنْ لهذا الساجدِ المقتربِ هلْ تلى في أمسِهِ من كتبِ؟
هلْ بنتْ أمُّ القرى مدرسةً؟ منتهى ما علمتْ تلكَ الدمي
يتملّاها بنوها النجباء!

مَنْ لهذا الفَرْدِ في بيدائِه … يرْوي العالَمَ أو أنبائِه
هَلْ أتاهُ نَبَأٌ عن فارسٍ … هَلْ عن الشامِ ومصرٍ من نَبا
وعن الرُّومِ وأرضِ الحُكماءِ ؟

ضَجَّ بالعُدوان ذاك العالَمُ … ما يُرى هادٍ له أو عاصِمُ
الهـــداياتُ به حائرةٌ … والضَّلالاتُ به استشرت فما
يَفهمُ الرَّحمةَ إلا الضعفاء !

باتَ ما طافَ به من قبسٍ … في ظلامِ الأرضِ كالمُختبِسِ
يا لها من شُعلةٍ خابيةٍ … غرقتْ أو أوشكتْ فيما جرى
من دموعٍ هاطلاتٍ ودِماءِ !

لَوَت الشُّعلةَ عن وجهتِها … أممٌ ثارتْ على وَمضتِها
ضَرَبَ الغيُّ على آذانِها … واشترَت بالحقِّ والنورِ العمى
فتغشَّتها دياجـــيرُ الفناء

طابَ للأُمِّيِّ في الغارِ المُقامْ … ليس يثنيه سُهادٌ أو صِيامْ
للسَّمواتِ العلى مُستشرِفٌ … في دُجى الليلِ وفي نورِ الضُّحى
ضارعٌ لله موصولُ الدُّعاءِ

سابحٌ في الملكوتِ الدائمِ … والجَلالِ المُستفيضِ القائمِ
مُطلَقُ النَّفسِ رَضيٌّ آمِلٌ … صُوَرُ الحقِّ بهذا المُجتلى
أمدَّتْهُ بروحٍ وانتشاء

رَوْعةُ التسبيحِ في نظرتِه … وجلالُ الحقِّ في مُهجتِه
ساجدٌ لله يرجو وجْهَهُ … صابرٌ مُرتقِبٌ جَمَّ الرِّضا
خاشعُ المُهجةِ مصدوقُ الولاء

طاف بالرعبِ على مَضجعِه … هامسٌ يَهمِسُ في مِسمعِه
ياله الله ! أرؤيا نائمٍ … ماله يَسمعُ لكن لا يرى
حوله إلا هواءٌ أو هباء ؟

إنها الشعلةُ جاءت من جديدْ … للورى فيها طَريفٌ وتَليدْ
هَبَطَ الغارَ بها الرُّوحُ الأمين … ساقها اللهُ لطه المُصطفى
ابنِ عبدِ اللهِ خيرِ الأنبياء

قبسُ اللهِ العلي الأكرمِ … « عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَمِ »
قبسُ اللهِ الذي أوحى له … ظلَّ يرجو نورَه حتى انجلى
رائعَ الإشراقِ وهّاجَ الضياء

هلَّ نورُ اللهِ في أعلى الجبل … أبشري يا أرضُ قد هلَّ الأمل
حَمَلَ ابنُ البيدِ ما ألهمَهُ … ومشى الراعي رسولا للورى
يرفعُ الشُّعلةَ من بعدِ انطفاء

يا رمالَ البيدِ قد جاء البشيرْ … نزلَ الداعي إلى الحقِّ النذيرْ
انظري به ... نوره بين يديه … أيُّ نورٍ مثلَ هذا أو مضا
أيُّ قولٍ حارَ فيه الفصحاء ؟

غَمَرَ النورُ جباهَ الصابرين … وتمشَّى بين أيدي القانتين
من رُبوعِ الهندِ للأندلسِ … ألهمَ الناسَ العُلا أنَّى مضى
فهمو في الدينِ والدنيا سواء

الخفيف

بين مصر وإيران

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

الترابط بين الأمم والشعوب ضرورة اجتماعية، تقتضيها طبيعة الوجود، والرغبة في التعاون والمنفعة. وإن الأمم لتأخذ لهذا الترابط بأسباب مختلفة، وتقيمه على اعتبارات متباينة؛ فهي مرة تقيمه على الأغراض المشتركة، والآمال المتفقة، والمذاهب المتماثلة؛ ومرة تدعو له باسم الوشائج الجنسية، والروابط العصبية؛ ومرة تشرعه بدعوى العلم والحضارة والصالح العام؛ وفي هذا العصر يتخذه القوم وسيلة لسد المطامع، والجشع الاستعماري، وفرض السلطان على الشعوب الضعيفة؛ وهم في كل هذا يوثقون له بالمعاهدات والمحالفات والمشارطات والمؤتمرات تقام ثم تنفض، وقد ملأ القوم الدنيا بالخطب الرنانة، والوعود الخلابة، والرغبات التي ظاهرها الرحمة للإنسانية، وباطنها الويل كل الويل للإنسانية.

وكل هذا باطل في منطق الحق، وكذب على طبيعة الوجود، وإن صح في خسيس من المذاهب رجس كما يقول أمير الشعراء. وإن التاريخ ليخبرنا بوقائعه وتجاريبه بأنه ما وثق بين الأمم والشعوب مثل تبادل العواطف، وما وثق في تبادل العواطف مثل المصاهرة: تلك الفضيلة الاجتماعية التي جعلها الشرع الإسلامي صلة من صلات المودة والألفة والاتحاد، وأنزلها منزلة القرابة العصبية واللحمة في النسب، فقد حرم على الشخص أن يتزوج بأم زوجته أو بأنثى من فروعها وأصولها. كما حرم عليه أن يتزوج بأمه أو بأنثى من أصول نفسه وفروعه، وكذلك حرم على زوجته الاقتران بأحد من أصوله أو فروعه، فكأنما أنزل الله كلاً من الزوجين منزلة نفس الآخر حتى أنزل فروع كل منهما وأصوله بالنسبة إلى الآخر منزلة أصول نفسه وفروعه. وهذا برهان يقيمه لنا الشرع الحكيم على أن الاتصال بطريق المصاهرة مساو لنفس القرابة النسبية في الأحكام والحقوق والألفة والاحترام.

على هذا الاعتبار القويم تتخذ الأمم الرشيدة من المصاهرة رابطة مودة، وواسطة سياسية، وعلاقة تامة يكون بها التعاون والرغبة في الإفادة والخير؛ بل على هذا الاعتبار جرت عوائد الأمم في الأزمنة الغابرة، فكانت القبائل والعشائر تتصاهر إذا أرادت أن تدخل في ميثاق يكون به المعونة على دفع الشر وجلب الخير؛ ولو أن دماء سفكت بين قبيلتين، وعداوة تمكنت بين أمتين، حتى ملوا مقارفة النزال، وكلوا من مقارعة النضال، ورغبوا في الأمن والطمأنينة والسلام، لم يجدوا وسيلة تقطع دابر العداوة فيهما، وتوثق روابط المحبة بينهما، إلا أن تتصاهر القبيلتان فتصيرا كأسرة واحدة، وتدخلا في عهد جديد تتوحد فيه المشاعر والعواطف، وتصح به الهمم والعزائم، وتقوى الرغبات والآمال.

وعلى هذا الاعتبار الذي تقتضيه الطبيعة، وتشير به الشريعة، وتقره وقائع التاريخ، تقوم اليوم الصلة بين شعبين كريمين: بين مصر ذات المجد الخالد، وإيران صاحبة التاريخ التالد. والصلة بين مصر وإيران صلة قديمة منذ العصور الغابرة، فالتاريخ يحدثنا بأنه لما ظهر «كورش» مؤسس الإمبراطورية الفارسية العظيمة، فاندفع في الغزو والاستعمار حتى استولى على ليديا وميديا وآسيا الصغرى وتوغل شرقاً إلى شواطئ السند، خشيت الدول بأس الفرس، وعقدت ضدهم محالفاً ضم بابل وليديا ومصر وبعض ولايات الإغريق، فنهض «كورش» العظيم للانتقام من الدول المتحالفة، فأعاد ليديا لطاعته، وفتح بابل من جديد، ثم مات وفي نفسه الرغبة في غزو مصر!

فلما تولى من بعده «قمبيز» عمل على تنفيذ الرغبة، فجاء بجيش جرار إلى مصر، وكانت مصر منيعة بالتحصين، ويقول مؤرخو الإغريق أنفسهم: إن أحد الجنود اليونانيين خان المصريين فدل الفرس على أسهل الطرق في اقتحامها، وبهذا استطاع «قمبيز» أن يفتح مصر بعد مقاومة شديدة، حتى لقد أسر ملكها «ابساتيك الثالث»، واشتط في معاملة المصريين، فأذاقهم ألواناً من القسوة والحنق، وهزئ بدياناتهم فهدم المعابد والهياكل، وقتل بيده العجل أبيس في أحد الاحتفالات الدينية

فلما تولى «دارا الأول» أراد أن يصلح ما أفسده «قمبيز»، فزار مصر، وأبدى احتراماً عظيماً لديانات المصريين ومعبوداتهم، حتى لقد شيد هيكلاً فخماً بواحة سيوة لمعبودهم آمون، وبنى كثيراً من المدارس ودور العلم، وعضد التجارة ففتح الخليج

الموصل بين النيل والبحر الأحمر ، وأصلح طريق قفط المار بوادى الحمامات ، وعلى الرغم من هذا كله فقد انتهز المصريون الفرصة فى هزيمة « دارا » مع الإغريق فى موقعة « مراتون » ، فخرجوا على طاعته ، واستردوا استقلالهم بزعامة أمير من الوطنيين، ولكن الفرس عادوا إلى غزو مصر ثانية فى عهد ملكهم «إجزرسيس»، فقابلهم المصريون بالثورة والتمرد . وهكذا ظل الفرس على الرغبة فى استعمار مصر ، وظلت مصر فى الثورة على هذه الرغبة حتى جاء الفاتح العظيم الأسكندر الأكبر فطوى مصر وفارس فيما طوى من الأمم والشعوب

تلك هى صلة مصر بفارس فى التاريخ القديم ، وهى كما ترى صلة الفتح والاستعمار ، ورغبة السيطرة وبسط النفوذ . فلما كان مطلع التاريخ الحديث اتصل المصريون بالفرس اتصال محبة ووفاء واحترام ، فتمكن الود بين السلطان الغورى والشاه اسماعيل الصفوي على دفع الخطر العثمانى الداهم ، فسمح الغورى بأن يمر بطريق الشام الوفد الذى أرسله الشاه إلى البندقية لعقد محالفة على محاربة العثمانيين ، ولما زحف السلطان سليم الأول على بلاد الشاه وأراد أن يكتسح فارس بأجمعها ، وجد الشاه قد أتلف كل ما خلفه فى المدن والقلاع من المئونة والذخائر ، فأرسل السلطان سليم فى طلب المدد والزاد من بلاده ، ولكن قبائل التركمان وإمارة الغادرية التابعة لمصر أغارت على قوافله ومنعت وصولها إليه ، فقلت الأقوات فى معسكره ، واضطرب الأمر فى جيشه ، وحرم لذة انتصاره ، فأسرها السلطان فى نفسه ، وكانت مما تعلل به فى غزو مصر وضمها إلى خلافة آل عثمان

واليوم ترتبط مصر وفارس برباط المصاهرة الكريمة ، أعنى رباط القرابة والنسب ، والود والألفة ، وإنه لوضع ثابت فى الاختلاط بين الشعبين ، وعهد جديد فى التعاون بين الأمتين الخالدتين ، وميثاق صريح صحيح يؤكده دعامتان: «دين» يوحدبيننا فى المشاعر والأفكار والعواطف والميول والأخلاق والعادات ، « وثقافة » مستمدةمن تعاليم الإسلام، وسياسة القرآن، وكل ماخلف العرب من أفانين العلوم والمعارف . والدين والثقافة عند علماء الاجتماع هما أهم المبادىء التى تحفظ كيان الأمم ، وأقوى العناصر فى تكييف حياتها ورقيها . أليس بفكرة الإسلام وحدها استطاع محمد صلوات الله عليه أن يجمع شمل تلك القبائل المتفرقة المتخاذلة ، وأن يخلق منهم تلك الدولة العظيمة التى دوخت العالم ، وتبوأت أرفع مكان فى التاريخ ؟!

ولا شك أن الشرق اليوم هو اللقمة السائغة التى يتقابل على التهامها أمم الغرب ، ولا شك أنه لا طاقة للمسلمين بدفع هذا الخطر ولا قائمة لهم إلا بتبادل الشعور والعواطف ، وإحكام الروابط والصلات ، والرجوع إلى وحدة إسلامية لا مناص من الرجوع إليها كما يقول أستاذنا المراغى . ولا شك أن هذه الصلة الوثيقة بين مصر وإيران ، قد قربت الوصول إلى تحقيق هذه الوحدة ، وستكون إن شاء الله طالع سعد للاسلام والمسلمين ، وتوثيقاً لعرى القومية بين أمم الشرق التى هدها نفوذ الغرب وجشعه ، وأنهكها طول التفرق والانقسام .

أميرة مصر وأمير إيران يقترنان ... ألا إنه لبراعة استهلال للعام الجديد ، وطائر يمن للشرق والإسلام ، ورغبة أمتين كريمتين فى الخير والمحبة، ثم هو صلة بين قلبين طاهرين، وعاطفتين نبيلتين، نسأل الله أن يحوطه برعايته ، وأن يقرنه بالسعادة والبركة ، وأن يحقق به الآمال والرغبات ، وأن يجعله وسيلة الخير والسلام لغاية الخير والسلام

محمد فهمى عبد اللطيف

رسالة الإسلام خالدة

للأستاذ محمد فريد وجدي



وقر فى عقول أهل العلم الغربيين، وعقول من نهل من حياضهم من الشرقيين ، أن الأديان التى احتضنت الجماعات البشرية منذ نشوئها إلى عهد قريب قد انتهى دورها ، وانقضت رسالاتها ، لعدم وجود نفع يرجى للجماعات الراهنة منها. وكثيراً ما أُسأل: هل رسالة الإسلام لا تزال قائمة ؟ فأجيب : نعم ، وأبد الدهر . ولست فى تأكيدى هذا بواقع تحت سلطان العقائد الوراثية ، ولا بمخدوع بالأوهام التقليدية ، ولكنى مستند فيه إلى علم ، وماض فيه على بينة

ذلك أنَّ كل مجموعة من التعاليم يحكم عليها بانقضاء دورها ، حين تستنفد الحياة كل ما فيها من غذاء يناسبها ، أو تتطور العقول وتظل هى جامدة لا تماشيها ، فترفع عن الأخذ بها ؛ ولكن تعاليم الإسلام لا تجرى عليها هذه السنة ، فقد جاءت بالمثل العليا فى كل ناحية من نواحى الحركة الروحية والعقلية والاجتماعية ، فكيف يعقل أن تنتهى له رسالة ، أو تزول له دولة ؟

فأما من ناحية الحركة الروحية فإن الإسلام يصرح بأنه دين الفطرة الإنسانية ، وهذه الكلمة أسمى ما يعبر به عن دين يخلد خلود البشرية . فإن الفطرة مودع فيها شريعة النوع كله بالقوة ، وهى واحدة فى جميع الأفراد لا تتعدد إن لم تفسد بدس تعاليم خارجية إلى النفس تحولها عن سمتها الطبيعى . وقد شدد الإسلام فى النهى عن إفسادها بالتعاليم الضارة بها فى كل مناسبة ؛ وقد زاد حفاظها بحوافظ قوية من ضروب مختلفة ، فنبه النفوس أولاً إلى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة ، وأمر بطلب الدليل المقنع على كل عقيدة يتقدم بها داع لنحلة ، وصرح بأن الإيمان التقليدى لا يقبل ، وأن الإنسان مسئول عن عمله الشخصى ، وأن أحداً لا يغنى عنه شيئاً ، وأن أكثر من فى الأرض لا يتبعون إلا الظنون والخزعبلات الموروثة ، وأن الدين يهتدى إليه الإنسان على ضوء العقل الناضج والعلم المحص ، وأن الإنسان يترقى فى معارج الهداية بقدر ما يخلص فى طلب الحق ، ويتجرد من الأهواء والأوهام ، ويثابر على النظر والفكر ، ويستمع لكل كلام فيتبع أحسنه ، ولا يأنف أن يأخذ بحقيقة يأتيه بها من يخالفه فى دينه ولغته ، وألا يصر على قول إذا ظهر له وجه الصواب فى تركه ، وألا يتعصب لمذهب أو رأى تعصباً يعميه عن نظر ما عسى أن يكون فيه من الثلم أو يرد عليه من الاعتراضات ، وأن يكون دائماً حريصاً على استقلاله العقلى وحريته الفكرية ، مستعداً لأن يصحح ما يتضح له أنه مخطئ فيه ، معتقداً أن ليس بعد الحق إلا الضلال .

وبناء على هذه الكليات يرى الإسلام أن الناس ماداموا كلهم متشابهين فى الخلقة ، ومتساوين فى الميول والعواطف ، فلا يصح أن تكون لهم أديان متعددة لم يفرق بينها إلا أهواء القادة وأوهام الزعماء ، فإنما هو دين واحد ، دين الفطرة المؤيد بالعقل والنظر ، المنزه عن الظنون والوساوس ، الجامع لكل ما حصلته الإنسانية فى أدوار حياتها من مذخورات أدبية ، وفتوحات روحية ، فقال تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » وقال : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء »

وأما من ناحية الحركة العقلية فإن الإسلام قد رفع من شأن العقل ونوه بسلطانه ، إلى حد أنه اعتبر الذين لا يقيمون له وزناً فى تقدير قيمة عقائدهم دواب تحقيراً لهم ، فقال تعالى : « إن شر

الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . وعد الذين لا يستخدمون حواسهم الظاهرة في النظر والتأمل ، ومشاعرهم الباطنة في الاستدلال والتعقل ، أنعاماً بل أضل . قال الله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »

وشفع الإسلام كل هذا بالتحضيض على طلب العلم والتحريض على تصيد المعرفة من كل المظان التي يتخيلها العقل ، من النظر في الكون والتأمل في الكائنات ، والتنقيب عن مساتير الخليقة والسريان في سرائر الوجود ، في السماء وأجرامها ، في الأرض وعوالمها ، في الحيوانات وعجائبها ، في النباتات وبدائعها ، كل ذلك لبناء الشخصية الإنسانية وإبلاغها إلى ذروة الكمال المقدر لها . ولقد رفع من شأن العلم في نظر الإنسان إلى حد أنه حصر فهم آيات الله وإدراك مراميها ، وفهم منازيها في أهل العلم ، فقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » وقال : « إن في ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام فيهما . ولا يمكن أن يتخيل أحد أن يتجاوز التنويه بشرف العلم هذا الحد

هذا ولم يغفل الإسلام في تطلب ترقية الشخصية الإنسانية شيئاً، حتى الضرب في الأرض، وتعرف أحوال الأمم وطبائعها ، ودراسة ما هي عليه من شرائعها وعاداتها ، وناهيك بأثر ذلك في ترقية النفسية البشرية ، فقال تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها. أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . وقد كرر الحض على السياحة مراراً كثيرة

وأما من ناحية الحركة الاجتماعية فإن الإسلام قد بلغ بها الأفق الأعلى ، وأوجد في رابطة الاجتماع تجديداً لم تحلم به الإنسانية بعد ، ولا مناص في أنها ستعول عليه في المستقبل ، فقد جعلها الاسلام مؤلفة من الأصول الأدبية، والقواعد الخلقية، لا كما كانت قائمة عليه من الحاجات الجسدية ، والمقومات القومية . فعل الإسلام ذلك لتشمل تلك الرابطة النوع البشرى كافة ، وتتلاشى في طريقها الفروق الجاهلية القائمة على الجنسية ، والخلافات اللغوية واللونية التي كانت ولا تزال عوامل شقاء في بنية الإنسانية ، بما تثيره من الحروب والغارات بينها ، وما تمحق من روح التكافل والتعاون فيها . فالإسلام لا يعترف بفرق بين عربي وعجمي وصيني وتركي ، وجاوى وفرنسي الخ ، فالناس كافة في نظره أولاد آدم وحواء ، وقد خلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا ، لا ليتناكروا ويتناحروا ، فقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير »

فالإسلام يقرر أنه ما دام النوع البشرى واحداً ، فيجب أن يكون له دين واحد وغرض في الحياة واحد . وأنت ترى أن العالم كله رغماً عن طغيان العاطفة القومية في هذا العصر ، وازدياد عوامل الفرقة والخلاف بين الشعوب ، سيضطر إلى التوحد ، وستكون هذه الموجة نفسها من الخلاف والتفرق من أكبر العوامل في إيجاد تلك الوحدة المرجوة ، لأنها ستثبت بدليل محسوس أن هذه الوحدة هي العامل الوحيد لنجاة المدنية من التلاشي .

إذا اعتبرت كل ما ذكرته هنا رأيت بما لا يدع شكاً أن رسالة الإسلام لا تزال باقية ، وأنها ستبقى ما بقي النوع الإنساني على الأرض . وإنما تزول التعاليم إذا كانت مقدرة على أحوال معينة ، متى ارتفعت أصبحت تلك التعاليم لا تسد حاجة المجتمع فتزول ، أو يثبت فسادها بترقي العقول . فتتلاشى مع كل ما يتلاشى من أمثالها

ولكن ما بيناه من تعاليم الإسلام هنا لا يعقل أن يزول ، لأنها أصول أدبية خالدة ، ومثل عليا لا يمكن التمادي في سموها ، وفي تأدي العالم في المستقبل إلى محاولة تحقيقها .

محمد فريد وجدي

مجد المرأة وكرامتها في كنف الإسلام

للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي
مدير المساجد



أقام الشرع الإسلامي قواعد للمجتمع، على أسس اجتماعية أصلها ثابت وفرعها في السماء. ونظر إلى الدعامة الأولى لبناء الأفراد وهي المرأة، فجعلها قسيمة الرجل في الحياة، أمًّا أو زوجة، ثم أوضح لها شرعتها حكيمة مسدَّدة تمهد لها كل ما هو ميسر لها، متسق مع طبيعتها.

وطبيعة المرأة: وجدان متأثر، وعاطفة مشبوبة، وجانب لين، وأجزاء دقيقة، وهيكل متأنق، ورونق متألق، ولطف ساحر في التأسية، وفيض ضاف من الحنان

ولقد تنطق المرأة بكلمة تواسي بها الرجل إذا تفزع فؤاده من الهول، فتفعل الكلمة فعلها في قلبه، وتؤثر وتجدي ما لا يؤثره أو يجديه بلاغة الأساة من الرجال. ولعلك على ذُكر من كلمة خديجة أم المؤمنين يوم جاءها زوجها محمد صلى الله عليه وسلم وفؤاده يرجف من لقاء الملك، ومن تلقي الوحي، وهو أمين الله ومختاره جلادة وقوة وصبراً واحتمالاً، فلم يكن منفرجُ الروع، ولا ذهاب الخوف إلا ساعة قالت خديجة كلمتها، كلمة المواساة والترفق والأمل: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتحمل الكل، وتكسب المعدم، وتعين على نوائب الدهر»

***

أعلى الإسلام من قدر المرأة ما وسع العلاء طبيعتها، وعظم من شأنها ما شاءت الخليقة أن تعظم، ثم وفر لها من الحرية ما يناسبها ويُهيّئ لها في ميدانها سبيل النفع والخير؛ فلم يُردّها قعيدة بيت بل سيدة بيت؛ ولم يجعلها مسلوبة الإرادة، بل شاءها طليقة في مملكتها الصغيرة الكبيرة، ورجا لها الصيانة في قدس الخِدْر.

خطب صلى الله عليه وسلم بنت عمه أبي طالب واسمها أم هانئ، وكانت قد تزوجت ونسلت ومات عنها زوجها. فما الذي ألهمها الإسلام أن تقوله في جواب هذا العرض المحمدي الشريف؟ لقد قالت تخاطب صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله، لأنت أحب إلي من سمعي ومن بصري؛ وإني امرأة مؤتمة (مات عني زوجي) وبَنِيّ صغار، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأني وولدي؛ وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق زوجي»

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش: أحناهن على ولدٍ في صغره، وأرعاهن على بعل في ذات يده»

لم تكن تلك الحرية فيمن تختاره المرأة لنفسها قاصرة على كرائم أحرارهن، بل بسطها الإسلام حتى على من كانت أَمَة وخلصت من الرق.

ملك عقبة بن أبي لهب جارية حبشية اسمها بريرة، وزوجها عبداً من العبيد، فكانت تضيق به وتتبرم منه. ولكنها مملوكة، وأمرها ليس بيدها. فلما علمت عائشة أم المؤمنين بما تعانيه «بريرة» في هذا الزواج اشترتها وأعتقتها. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ملكتِ نفسكِ فاختاري» فاختارت أن تنجو بنفسها من هذا الزواج الذي لا تطيب به. فكان زوجها بعد هذا الفراق يمشي خلفها ويبكي ويسترضيها، فلا ترضى عنه. وكان يرثى له كل من يراه خلفها باكياً. رآه صلى الله عليه وسلم مرة وتلك حاله فقال لأصحابه: «ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له!» ثم قال لها: «اتقي الله فإنه زوجك وأبو ولدك» فقالت: «أتأمرني يا رسول الله؟» فقال: «لا. إنما أنا شافع» فقالت: «إذن، فلا حاجة لي إليه...»

هكذا تقررت حرية المرأة فى أمر نفسها ، حرية تكفل للبيت النعيم ، وتوفر لها الهناءة . وبهذا جاء الإســلام موقراً لرأيها ، محافظاً على كيانها ، مظهراً لشخصيتها . فإذا ما أجارت المسلمة لاجئاً ، أو أمّنت أسيراً ، فقد أجار المسلمون — جميعاً — مَن أجارت ، وفكوا من أطلقت ، وحموا من استعاذ بها ...

ورد فى صحيح البخارى أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة يوم الفتح احتمى رجلان بأم هانئ بنت أبى طالب وهى مسلمة ، فدخل عليهما أخوها على وهمّ بقتلهما ، فأغلقت دونه الباب ، وجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : « مرحباً وأهلاً يا أم هانى ، ما جاء بك ؟ » فأخبرته خبر الرجلين وخبر أخيها على ، فقال عليه السلام : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ وأمّنا من أمنت »

فقد أجاز الشرع لعقيلة مسلمة كريمة أن تفك عانياً أسره المسلمون فى غزوتهم ، وقد كانت بين الأسير وبين الكريمة أسباب وثيقة ، فما هو إلا أن عاذ بها واستجار فى حماها ، فأجارته

***

ولقد كانت كبرى بنات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهى زينب قد تزوجت من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع ، وكان أبو العاص يخص زوجته زينب بإكباره وتكرمته ، فلما انصرف عن الإسلام بادئ الأمر وزوجته مسلمة فرق بينهما الإسلام ، وهاجرت زينب ، وبقى هو منصرفاً عن الإسلام ؛ غير أن حنينه لزوجته لم يفتر ، فكان يرسل لوعته الحرّى فى أبيات من الشعر الرقيق ويقول :

ذكرت زينب لما وركت إرما ... فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة ... وكل بعل سيثنى بالذى علما

ثم خرج إلى الشام فى تجارة لقريش ، فعرض للقافلة زيد بن حارثة فى جمع أرسله محمد عليه السلام ، فغنموا المال وأسروا الرجال . وكان فى الأسرى أبو العاص ، فاستجار بزينب ، فرجت أن تحقق إجارته وأن تحميه ، وترقبت صلاة الفجر ، وأبوها يؤم المسلمين ، فلما انتهوا وقفت بباب المسجد ونادت بأعلى صوتها : « إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع » . فقال صلى الله عليه وسلم : « هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : نعم . قال : « فوا الذى نفسى بيــده ما علمت بشىء مما كان حتى سمعت ما سمعتم . المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت » فلما انصرف النبى صلى الله عليه وسلم إلى منزله دخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه ، ففعل ...

ولقد حسن شأن أبى العاص ، وحلت الهداية قلبه ، فعاد إلى مكة وأدى الحقوق إلى أهلها ، ثم رجع إلى المدينة مسلماً ، فرد رسول الله إليه زوجته زينب الوفية البارة .

***

رأى الشرع الإسلامى أن صيانة الأعراض وحرمة السير وكرامة الأسر من حقوق المجتمع ، بل من أسباب بقائه ونموه ؛ ذلك بأن الخليّة الأولى من خليات المجتمع هى الأسرة ، والأسرة لا قوام لها إلا بالرجل ، يندفع لحمايتها ، وينبعث لرعايتها ، ويعانى أخطار الحياة ، ويجوب العامر والخراب — كل ذلك ليوفر لأبنائه ولبيته أسباب الحياة وسعادة العيش ؛ وما يدفعه إلى ذلك إلا حنان الأبوة ، ووشائج النسل ، وشعور ملتهب بأن الولد قطعة من أبيه ، وفلذة من كبده ، فمن أين تمّ للرجل تلك الدوافع وهاتيك الوثبات إذا هو ارتاب أو حاك الشك فى نفسه صحة انتساب ولده إليه ، أو خلوص زوجته له ... !

لهذا أحاط الإسلام المرأة بسياج حصين ، وأمن الرجال على أنسابهم وأعراضهم ، لصلاح مجتمعهم ، ثم توعد — فى أسلوب قوى رائع — كل من يمس قداسة الطهر ، أو يتعرض — على غير علم — لصفة المرأة ، أو جرى على لسانه الهُجْرُ والفحش فى سيرتها ...

يقول تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون »

فانظر كيف حدد الله للتهجم على الأعراض عقوبة جسيمة ثم أردفها بأخرى أنكى وأخزى وأبقى على الأيام ، تَسِمُ القاذفَ بميسم الخزى وتتهمه — أبد الأيام — بفقدان الثقة وخبث الدخيلة ومرض الضمير . ثم يختم سبحانه الآية بتسجيل فسق القاذف

وخروجه عن طاعة الله ونبذه من المجتمع الأخلاق ...

ثم شاء — جل وعلا — ألا يدع هؤلاء الوالغين فى الأعراض حتى يجعل الخزى والعار ناطقاً بشناعتهم مشهراً بسوآتهم فقال :

« إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين »

ولقد ثقف الإسلام المرأة ثقافة يتطلبها شأنها ، ثقافة دينية خلقية ، فكان عليه الصلاة والسلام يجعل للمسلمات يوماً كل أسبوع يعلمهن ويثقفهن، وكان كريم الصبر فى إرشادهن، فسيح اللبان فى هدايتهن

أخذ عليهن — عندما كن يبايعنه مرة — ألا ينحن على الموتى . فقالت عجوز ممن حضرن : يا رسول الله ، إن أناساً أسعدونى على مصيبة أصابتنى ، وإنهم أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أسعدهم .. فقال لها عليه السلام : « انطلقى فأسعديهم » ثم عادت فبايعته .

تلك بعض نظرات الشرع الإسلامى إلى المرأة ، فأين نحن ؟ وكيف صرنا ؟

لقد يروى لنا المؤرخون أن دولة الرومان يوم تألق نجمها ، وعظم سلطانها ، واستبحر عمرانها ، كان الشطر الثانى للمجتمع وهو النساء ، لا يعرفن غير البيت والأسرة ، يقمن للبيت بواجبه ، ويؤدين للأسرة حقها ، وهن من وراء حجبهن . بل لقد غلون فى الحجاب يومذاك غلواً كبيراً ، فلن تخرج واحدتهن إلا وهى ملثمة ، وعليها الأردية السابغة ، ومن فوقها العباءات التى لا تبين تقاسيم الجسم — فى ذلك الحين برع الرومان فى كل شىء ، فى الملك والصناعة والتشريع ، ودانت لسلطانهم الشعوب . فلما بلغت الدولة مداها ولع الناس بالترف ، وغمرهم النعيم ، وأفسد أجسامهم البذخ ، فغدوا يتكرون الملذات من غير تحرج ولا تأثم ، حتى فترت غيرتهم ، وامحت نخوتهم ، فتضعضعت قوة الملك ، ووهى صرح المجتمع ، ولم تلبث دولة الرومان العظيمة أن تساقط ملكها ، وانترع الفساد شوكتها ، وراحت صريعة الشر الاجتماعى الذى نزل بالمرأة من عليائها إلى الحضيض ، وهوى بالدولة معها إلى الفناء .

* * *

ولقد نسمع المفكرين وذوى المذاهب الإصلاحية الاجتماعية يتصايحون اليوم : أن ارجعوا بالمرأة إلى ما خلقت له ، وجنبوها مزالق الاجتماع ، واجعلوا تحت نظرها كتب التهذيب الدينى ، والتدبير البيتى ، لتروى أبناءها من منابع الدين وأصول الفضائل ، وتحكم بتدبيرها نظام الأسرة الذى أوشك يتداعى . فهل من سميع؟ وهل من مجيب ؟ لنا فى تراثنا مرجع لصد العابثين ، وإيقاظ السامدين . إن فى تربية الإسلام للمرأة ما يوفر لها حريتها ومجدها وكرامتها .

الجديلى

عياش بن أبي ربيعة

للأستاذ كامل محمود حبيب

«يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون. واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون». (قرآن كريم)



الليل ساج، والحياة نائمة، وعيّاش في طريقه يتسلل في رقبة وحذر، وقلبه يضطرب خشية القوم أن يستشعروا فراره فيجلبوا عليه وهو يريد أن يفزع بدينه إلى المدينة.. إلى حيث يجد الحرية والأمان. لقد كان — وهو في طريقه — ينظر إلى وراء، بين الفينة والفينة، يودع ملاعب الطفولة ومراتع الشباب للمرة الثانية، والعبرات تترقرق في محجريه، غير أنه ما كان ليأسى على شيء في مكة وفي قلبه الإيمان والصبر إلا على أن حُرم استجلاء النور الإلهي من طلعة النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا على فراق أمه وقد تعلق بها قلبه فما ينصرف عنها، وإلا على مال كثير خلّفه هناك كان يطمع أن يشد به عصبه؛ ولكن خياله كان يوحى إليه أن رفيقيه — عمر بن الخطاب وهشام بن العاص — ينتظران عند التّناضُب من أضاةِ بني غفار فوق سَرِف على أميال من مكة، فهو يهفو إليهما في غير أناة ولا تردد.

وبلغ الفتى المكان فاطمأن قلبه أن ألفى عمر بن الخطاب هناك يتشوّف... وتنفّس الصبح ولما يبدُ هشام عند الأفق، فانطلقا معاً... ونزلا المدينة ينعمان بالحياة والإيمان لا يجدان من الضيق والعنت بعض ما كانا يجدان في مكة.

وتناهى خبر عيّاش إلى القوم من بني مخزوم فَغَدَوْا إلى أبي جهل والحارث يعيرونهما ويحثونهما: «أَفَيَفِرّ الرجل من بينكما ثانية ليكون لكما — على الدهر — عاراً وسُبَّة»، وأبو جهل يتلهّب من الغيظ والحقد وقد انطوت نفسه على أمر، والحارث إلى جانبه يقول: «وماذا عسانا أن نفعل في سفيه فرّ مع سفهاء مثله؟» وثارت الحَمِيّة حمية الجاهلية في رأس أبي جهل تستلبه الهدوء والاستقرار، والشيطان من ورائه يدفعه إلى أمر، فراح إلى الحارث يحدثه حديثه وحديث الشيطان في وقت معاً... ثم انطلقا معاً صوب المدينة...

وجلس أبو جهل والحارث إلى أخيهما عياش يترفقان معه في الحديث، ويدخلان إلى قلبه بفنون من الكلام، فاستعصى عليهما؛ غير أن أبا جهل لم يكن رجلاً تَزَعه الكلمات عن غايته أو تثنيه عن قصده، فيرتد خائباً مخذولاً؛ فراح يقلب الرأى في خاطره، ويتلمس الحيلة من شيطانه، ثم... ثم قال: «يا أخى، إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك!» ورأى عمر بعض ما بدا على عياش من رقة واستخذاء حين سمع ذكر أمه، وخيل إليه أن الرجل يلقى إلى أخويه السَّلم فيذهب ضحية المكر والخديعة، فقال: «يا عيَّاش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حرّ مكة لاستظلت» ولكن الشيطان كان قد عدا على الرجل فاستلبه الثبات، فقال: «أبِرُّ قسم أمى، ولى هنالك مال فآخذه» فقال عمر: «والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما» غير أن الرجل كان قد وقع في حبالة أخويه حين صوّر له شيطانه أمه في الهاجرة شعثاء غبراء تندب ولدها وتؤذى نفسها، فأبى إلا أن يصحب أخويه، وعمر به ضنين.

وعجز عمر عن أن يدفع الرجل عن الهاوية التى يوشك أن يتردى فيها، فقال له وهو يهم بالرحلة: «يا عياش، أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم رَيْبٌ فانجُ عليها» ثم... ثم وقف ينظر إلى الإخوة

الثلاثة حتى غيَّبتهم البيداء فى أحشائها فرجع وفى نفسه الأسى والحزن ، وقلبه يحدثه حديثاً ...

وانطلق عياش بين أخويه ، وأبو جهل يختلس النظرات — بين الحين والحين — إلى ناقة عمر وهى تخد بأخيه وخداً سريعاً ، وقد حمل لها كرهاً حين لم يستطع أن يحول بين عياش وبينها ، وحين عجزعن أن ينالها بسوء ، ثم لمعت فى رأسه خاطرة ابتسم لها ، وأشار إلى أخيه الحارث ينذره بأمر ، ثم راح إلى عيّاش يحدثه : « والله يا أخى لقد استغلظتُ بعيرى هـذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟ » فقال عيّاش وقد أمن مكر أخيه : « بلى ، يا أخى ! » فأناخ وأناخا ليتحوّل إليها ، فلما اسْتَوَوْا بالأرض عَدَوَا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة نهاراً وعلى وجهيهما سمات الفرح والسرور يباهيان أهل مكة بمـا كان ، ويقولان : « يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا » ثم فتناه فافتتن

أحقاً قد افتتن الرجل وارتد عن دين الله واطمأن إلى الكفر ، وسكن إلى الجاهلية ، واستحب العمى ، بعد إذ ذاق حلاوة الإيمان ، ووجد فى قلبه برد الإسلام ، وعاش زماناً بين إخوة من المؤمنين يستروح منهم نسمات الحب والإخلاص وهو فى الحبشة حيناً وفى المدينة حيناً ، لا يستشعر مرارة الفراق ولا لذع الغربة ؟ إن صُبابة من الإيمان ما تزال تتوثب فى قلبه ، غير أنه خشى أن ينطلق إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستغفره فلا يتقبّل منه ، وهو كان يسمع صحابته يقولون : « ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة . قوم عرفوا . . ثم رجعوا إلى الكفر كبلاء أصابهم » فيرتد على عقبيه وفى نفسه الحسرة والشجن ... ثم لبث فى قومه سنين

وترامى إلى الرجل أن النبى صلى الله عليه وسلم هاجر من مكة فى رفقة صديقه أبى بكر فنازعته نفسه إليه تدفعه أن يلحق به ولكن ...

وتصرمت أعوام وعَيَّاش فى حيرة من أمره ، ما يستطيع أن ينزل عنـد رأى أخويه فيئتمر فى الكفر فيجحد ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما هو بقادر على أن يطير إلى المدينة ، وحديث رفاقه ما يبرح يدوّى فى أذنيه ، وعمر هناك فى المدينة أسيف على أن يرتد رفيقه عن دينه ، وعلى أن يتلمس إليه الطريق عَلَّه يجد الوسيلة إلى قلبه فلا يستطيعه

وأنزل الله تعالى « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » ووجد عمر فيما أنزل الله متنفساً فانطلق إلى قرطاس يسطّر عليه الآيات الكريمة ويبعث بها إلى صديقه ...

وأقبلت الرسالة تنفح من عبيرها على قلب الرجل فاضطرب لها ولمّا يفضّ مغاليقها ؛ وتاقت نفسه إلى أن يطمئن إليها ساعة من زمان يحدثها وتحدثه ، غير أنه لم يكن ليجد الخلوة . . . وعلى حين غفلة من أهله دلف إلى ذى طوًى بأسفل مكة ينشر الرسالة على عينيه وقد أمن الرقيب ، ثم راح يصعّد بها فيـه ويصوّب فلا يفهم منها حرفاً ، وبدت الكلمات أمامه عُقداً أعيت عليه . ماذا ؟ لقد استغلق عليه الكلام العربى المبين وهو عربى فى الصميم والذروة من العرب ! فأخذ يقلّب الصحيفة بين يديه وقد سيطر عليه الحزن والأسى ، ثم أُلقى فى روعه أن حجاباً كثيفاً أسدل بينه وبين أن يفهم كلام الله لأنه نجس ، فأقبل على الله بقلب سليم يسأله : « اللهم فهّمنيها » فألقى الله فى قلبه أنها إنما نزلت فيه وفى من هم على شاكلته وفيمن كانوا يقولون لأنفسهم ويقال فيهم ، فرجع إلى بعيره فجلس عليه ولحق بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو يستبشر بما غفر الله له

وعملت الآيات الكريمة معجزتها فى الرجل لتجذبه من هاوية كاد يتردى فيها ما لها من قرار ، إلا أن يستقر فى الدرك الأسفل من النار

كامل محمود حبيب

كتاب السيرة

للأستاذ أحمد الشايب
المدرس بكلية الآداب

— ١ —



تحتل السيرة النبوية فى تاريخ الأدب العربى مكانة لم يظفر بها موضوع آخر، لهذه المكانة التى يشغلها صاحبها فى تاريخ الأمة الإسلامية أولاً، وفى التاريخ العام ثانياً، فإن الرسول عليه السلام لم يكن أديباً فقط له هذه الآثار القوية الخالدة من الأحاديث والخطب والرسائل، وإنما كان قبل ذلك وبعده، رسولاً صاحب دعوة إصلاحية عامة تناولت الدين والنظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، وأثرت فى الحضارة العامة لمن اعتنقوها طائعين أو جانبوها كافرين، واستطاعت أن تستوقف التاريخ أو تلوى عنانه لتملى عليه إرادتها، وتلقى إليه وحيها، فأخذ عنها ما أملت، وكتب من فصوله صحفاً ملأى بالجهاد، والفضائل، والأدب، والفن، والسياسة؛ ولا يزال الإسلام إلى اليوم — على الرغم مما أصاب بعض ذويه من هوان — مصدر الخير والسعادة، وموئل البشرية حين تعوزها الهداية، وممهداً لدراسات خطيرة تلقى أمام رواد الحضارة المثالية ضوءاً يرجى أن يتم به على العالم ما يبنى من رشاد وسلام.

ولم تقف العناية بالسيرة عند العرب وحدهم، أو المسلمين فقط، وإنما تجاوزتهم إلى جماعة من كتاب الفرنجة الأعلام الذين رأوا فى نبى المسلمين رجلاً عظيماً من رجال التاريخ خليقا بالبحث فى أسباب عظمته، وما أتيح له من هذا الفوز الذى استأثر بالسلطان الدنى والسياسى طوال القرون الوسطى، إذ كان العالم الإسلامى يشغل التاريخ بأحداثه الكبرى، ودوله المتعاقبة، وآدابه الغزيرة حين كان الغرب يضطرب فى ظلمات كثيفة، ويحيا حياة خاملة.

ولسنا هنا بعرض الاستيعاب، واستقصاء هؤلاء الذين كتبوا عن الرسول قديماً وحديثاً من المسلمين وسواهم، وحسبنا أن نلم بشىء من ذلك لنصل منه إلى جماعة من المعاصرين الذين تناولوا السيرة بأساليب مختلفة، لها قيمتها العلمية والفنية جميعاً.

— ٢ —

منذ ألف ابن إسحاق سيرته التى اختصرها ابن هشام فى هذا الكتاب المنسوب إليه، والناس يعدونها المرجع الأول لكل من يحاول تأريخ الرسول. وليس ذلك لأن جميع ما احتوته حق تاريخى خالص، وموضع الثقة التى لا ينالها تجريح؛ لا، ولكن ذلك لأسبقيتها التاريخية فى التدوين، ولما احتوته من حقائق ثابتة فى كثير من المواقف، ولأنها روت أخبارها بهذه الروح التى كانت مسيطرة على المسلمين فى القرون الأولى، أى بوجهة نظرهم، وطريقة تفسيرهم لحوادثها ... فكانت الخطوة الأولى فى هذا السبيل عند المتقدمين، ونقطة الابتداء لكل من يحاول تأريخ النبى الكريم من المحدثين، يرجع إليها محققاً أو مستلهماً. دع عنك بعد ذلك ما تراه فيها من شعر منحول، وروايات مكذوبة، وأخبار لم تصح؛ لأن وزر ذلك لا يقع على ابن إسحاق وحده، وإنما لهذه البيئة التى كان يعيش فيها الأثر الأول فيما وقع فيه من قصور، فقد كان يحكى أخباراً جاهلية بعيدة، ويقص أياماً نالها المبالغات والعصبيات، وينقل آثاراً مات أهلها، واعتراها التحريف. على أن ابن هشام لم يقيد جميع ما كان لابن إسحاق من خبر بل حذف منه كثيراً وبخاصة ما كان متصلاً بالجاهلية الأولى، منفصلاً عما يتصل بحياة الرسول اتصالاً مباشراً كما هو مذكور فى المقدمة.

ثم جاء الواقدى وتلميذه ابن سعد فى طبقاته، وحاولا التحقيق والزيادة، فظفرا منهما بنصيب. وأصبح فن السيرة بعد

هؤلاء تقليداً من التقاليد يعمد إليه الكتاب تعبداً أو تأدباً كما فعل كتاب المقامات في عصور التاريخ الأدبي المتوالية ، فكانت السيرة الحلبية ، والسيرة الشامية . ولم تخل كتب التاريخ العام — كالطبري وابن الأثير — من تخصيص بعض أجزائها لسيرة الرسول إذ كانت تشغل وحدها فترة واسعة ، خصبة ، بعيدة الأثر فيما أعقبها من دول وأحداث .

وهذه المؤلفات القديمة لم تكن بالطبع خاضعة لهذه المناهج العلمية الحديثة ، فكانت مجموعة من أحاديث الرسول ، وأخبار الجاهلية وأساطير القدماء ، وأشعار الناحلين ومبالغات الراوين ، دون عناية بالنقد والتفسير أو التنسيق وحسن التأليف . ولكنها كانت مؤلفة بروح هذه العصور السابقة ، وبوجهة النظر التي كانت — في الغالب — مقياس الصحابة والتابعين حين يذكرون الرسول الكريم ويفسرون أعماله وآثاره

أما كتاب الفرنجة فقد رأينا مستشرقيهم يتهافتون على هذا الموضوع ، ويسلكون فيه هذه المناهج العلمية التي قد تفيد من ناحية الشكل والنظام ، ولكنهم بعد ذلك كانوا فريقين : فريقا اتخذ السيرة مجالاً للتعصب على الإسلام فكان من المبشرين الجاهلين ، وفريقا حاول الإنصاف ووقف عند الأصول العلمية الجافة ففقد هذه الروح أو الجو الذي كانت تجرى حوادث السيرة في ظلاله ، فتعسر عليه تفسير أشياء كثيرة كان من السهل عليه إدراكها لو أنه كسب هذه الروح وعاش بخياله في عصور النبوة الأولى . نذكر من آثار المستشرقين حياة محمد لإرفنج ، وأخرى لوليام موير ، وثالثة لمرجليوث ، ولا ينسى التاريخ هذا الفصل البديع الذي كتبه كارليل تحت عنوان (البطل في صورة نبي) إذ دل على تفهم عام لهذه الروح التي كانت تشيع في بلاد الرسالة قديماً

على أن الهنود لم يقصروا في هذه الناحية فكتبوا باللغة الإنجليزية في السيرة رأساً مثل النبي لمولانا محمد علي ، وفيما يتصل بها مثل روح الإسلام لسيد أمير علي ، ولغير الهنود في مصر وفي العالم الإسلامي آثار في السيرة لم تخل من فائدة

— ٣ —

ولكننا نختار من هؤلاء المعاصرين ثلاثة نقف عندهم وقفة قصيرة لا لشيء إلا لأنهم نهجوا في كتابة السيرة مناهج طريفة من ناحية ، ومتغايرة من ناحية أخرى : محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم

يتفقون جميعاً في العناية المحمودة بسيرة الرسول ، وجعلها في العصر الحديث موضوعاً خليقاً بالدرس وبذل الجهود في إذاعته بين الناس بأسلوب جديد يقربه إليهم ويحببه إلى نفوسهم ، وهذا وحده غرض نبيل يستحق التقدير . كذلك سلكوا مسالك واضحة ممتازة وإن كانت متغايرة ، ولكل مذهب محدود ذو معالم التزمها صاحبه ليس فيه هذا الاضطراب القديم الذي كان يجمع أشتاتاً من القصص ، والتقرير والوصف والرواية ونحوها ، وإنما هو مذهب علمي أو فني متناسق الأجزاء ، منظم العناصر ، فيه فقه للأشياء وفهم لها بروح قديمة أو حديثة أو بهما جميعاً . ومع ذلك فهم يختلفون في أشياء كثيرة

يمتاز هيكل بالمنهج العلمي الذي ترسمه فيما كتب، فكان مذهبه مذهب العالم المحقق، إذ قسم موضوعه إلى فصول متواصلة متلاحقة كما كانت حياة الرسول عليه السلام منتظمة في هذه الفصول أو الأقسام التاريخية ، ولا أقول إن هذا المنهج كله من اختراعه فلقد سبق إليه ، ولكنه آثره وهذب منه ، وهذه الخطة نفسها اقتضت مؤلف — حياة محمد — أن يكون مستقصياً استقصاء الباحث فليس له اختيار ما يحب وترك ما لا يهوى ، لأنه يعالج موضوعاً من عمل التاريخ ، عليه أن يعرضه كما حدث دون أن يخلع عليه من نفسه إلا ما شاء الخيال التاريخي الذي يربط الفكك ، ويصل المنقطع ، ثم هذا النقد الذي يظهر في تفسير كثير من المسائل بمقياس إسلامي علمي بعد ما كانت أشبه بالسمعيات تصدق ولا تعلل... وفي مناقشته آراء المستشرقين الذين تجافوا فيما كتبوا عن روح الدين وطبيعته ، وبعدوا عن عصر الرسالة وبيئتها فلم يوفقوا فيما يتصورون . وصاحب (حياة محمد) بعد ذلك مسلم حدب على الدين غيور ، أشرب روح الإسلام ، وألم بكثير من أسراره فظهرت على كتابه أعراض الحمية ، حمية من لا يسمح لأحد بغمز دينه أو النيل منه ، وذلك كله في أسلوب منطقي واضح هو أسلوب العلماء . ولكن طه حسين سلك سبيلاً أخرى هي سبيل الأديب حقاً ، فلم يشأ في الظاهر أن يتقيد بمنهج علمي ، وإنما كان قصاصاً ، ترك هذا العصر الذي نعيش فيه ، وانتقل بخياله الخصب إلى الجاهلية وصدر الإسلام وعاش مع ناسهما يفهم بعقولهم ، ويحس إحساسهم ، ويأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون؛ وبذلك استطاع — ماوسعه الجهد — أن يقص علينا الحوادث بروحها وفي جوهرها ، وأن يفسر المسائل كما كانت

تفسر حينذاك ، فنقل إلينا هذا الماضى أو نقلنا إليه بحيلة لطيفة . وفن القصص لا يقتضى صاحبه استقصاء ولا نقداً علميًّا دائماً ، ولا تحقيقاً وتفنيداً ، فآثر أهم الأمور التى يرى فيها روعة قصصية لأنها كانت رائعة إبان حدوثها أو فيما شعر وتخيل صاحب « على هامش السيرة » ... ثم تناولها واصفاً وحاكياً لم يترك جانباً منها إلا أضاءه وأكمل منه ما فات الرواة . وليس من شك فى أن ذلك قد عرض بأسلوب جميل هو أسلوب القصص الممتاز الجامع بين التحليل النفسى للأشخاص ، والإحاطة التامة بما يعرض له من مواقف

أما توفيق الحكيم ، فقد توسط الاثنين ، وجمع بين ميزتى العالم والأديب المثل ، فكانت سيرته أخف شيء على النفوس . استشار المراجع القديمة ، ووقف عند ما رسمت دون أن يستعين الخيال إلا قليلاً ؛ وقد ألم بأطراف موضوعه ، وقسمه فأحسن التقسيم ، ثم اختار قضاياه وصفاها وجعلها معالم واضحة خالصة من براهين التحقيق العلمى ، وإسهاب الفن القصصى ، فصارت قضايا موجزة باتة حاسمة ، ثم عرضها بهذا الأسلوب الحوارى أو التمثيلى كما كان يتحدث الرسول وصحابته والمتصلون بسيرته قديماً إلا ما لم يرد فيه نص . وكان توفيق الحكيم بعد ذلك حذراً محتاطاً لم يمس الموضوع إلا بخفة وإن كان الأسلوب من تقسيمه وابتكاره

كان هؤلاء الكتاب ، إذا ، بين عالم محقق ، وأديب قاص ، وفنى ممثل ، كل أخلص لمنهجه ، ووصل منه إلى غاية بعيدة

وتستطيع أن تتبين هـذا الفرق فى أسطر قليلة جداً ، فيما كتب عن أول ما عمل محمد عليه السلام فى تجارة خديجة ؛ فهيكل يقرر المسألة ويقول إن أبا طالب كان السفير بين ابن أخيه وبين خديجة ؛ وطه حسين يقيم ذلك على ميل خديجة إلى محمد وإرسالها دسيساً إلى عمه تعرض عليه أن يكون ابن أخيه فى تجارتها بأجر مضاعف ؛ فيأتى توفيق الحكيم ، فيقتضب المسألة ، ويترك الباب مفتوحاً للخيال .

والمرجو ألا يقف العلماء عند ما كتب هيكل ، وكفى ، وأن يتم طه حسين : « على هامش سيرته » ... وأن يجيبنا العلماء : هل تمثل سيرة الرسول على المسرح ثم ترسم على الشاشة البيضاء ؟

« رمل الاسكندرية » **أحمد الشايب**

حالة العرب الاجتماعية

فى عصر الدولة الأموية

للدكتور حسن ابراهيم حسن
استاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب



كان لاختلاط العـرب والروم وغيرهم من الأمم الأخرى أثر كبير فى تغيير عاداتهم وحياتهم الاجتماعية وبخاصة فى عهـد الأمويين فقد تأثر معاوية بن أبى سفيان بنظم الحكم التى أدخلها الروم فى بلاد الشام وابتكر ابتكارات لم يسبقه إليها أحد ، فهو أول من اتخذ الحشم وأقام الحجاب على بابه ووضع المقصورة التى يصلى الخليفة بها فى الجامع منفرداً عن الناس وذلك لخوفه مما جرى لعلى رضى الله عنه

وكان من أقدس واجبات الخليفة أن يؤم الناس فى صلاة الجمعة والصلوات الخمس . وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدون وبعض خلفاء بنى أمية. وكان الخليفة فى العهد الأموى يحضر إلى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ويرق المنبر لإلقاء خطبة الجمعة وبيده الخاتم والعصا ، وهما شارتا الملك

وقد تشبه خلفاء بنى أمية بالملوك وأبهتهم ، وكان الخليفة يجلس فى صالة الاستقبال الكبرى وعلى يمينه أمراء البيت المالك وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاط ثم يمثل بين يديه رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم

وكان الخلفاء الأول من بنى أمية يستمعون فى أوقات فراغهم إلى أخبار الحروب وسير فرسان العرب فى الجاهلية ، فكان معاوية يقرأ أخبار العرب وأيامها وسير ملوك العجم وسائر ملوك الأمم وحروبها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، وكان يقرأ عليه ذلك غلمان مرتبون ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات

وكان الأمويون يستمعون لقصائد الشعراء ويمنحونهم الجوائز ويخلعون عليهم الخلع . ولم يلبث أن حل الغناء محل الشعر ، كما كلف الناس بالموسيقى والغناء ، وتدفقت على دمشق طبقات المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الخلفاء يدعونهم إلى دمشق من أقاصى البلاد

وكان لعب الشطرنج و « الدومينو » والورق معروفاً عند الأمويين . ومن الألعاب التى شاعت فى ذلك العصر قتال الديكة على الرغم من أن الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز حرما هذا النوع من الألعاب

وكان سباق الخيل من أهم تسلية الشعب على اختلاف طبقاته . ويقال إن هشام بن عبد الملك الأموى كان أول من أقام حلبات السباق لتحسين نتاج الخيل حتى أنه اشترك فى السباق معه أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء .

وكانت المرأة العربية فى ذلك العصر تتمتع بقسط وافر من الحرية ، وكانت المرأة متحجبة على الرغم من أنها كانت تقابل الرجال وتتحدث إليهم وتقود الجيوش .

وقد أوجب الإسلام تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على أمهات المؤمنين أى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمن الناس ويعلمن أبناءهم وبناتهم ، وقد أمرهم الله سبحانه وتعالى بذلك فقال فى كتابه العزيز (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) ناهيك بعائشة أم المؤمنين فقد اشتهرت بالفقه ورواية الحديث والتاريخ والنسب والطب وعلم النجوم وقادت جند المسلمين يوم الجمل سنة ٣٥ هـ كما اشتهرت أختها أسماء بنت أبى بكر وأم عبد الله بن الزبير برواية الحديث والكرم والشجاعة ، فقد أُثر عن عبد الله بن الزبير أنه لما انضم بعض أتباعه إلى الحجاج ابن يوسف الثقفى قائد الخليفة عبد الملك بن مروان الأموى وبقى هو فى عدد قليل من أنصاره وأيقن أنه مقتول لا محالة دخل على أمه فقال يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا — فما رأيك ؟

قالت : أنت أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية ، يلعبون بها . وإن أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن . فقال: يا أماه ، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى . فقالت : يابنى إن الشاة لا تتألم بعد ذبحها . فامض على بصيرتك واستعن بالله . فقبل رأسها وقال : هذا رأيى . فطفقت أمه تدعو له وتشجعه . وخرج عبدالله بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالاً شديداً ، وأظهر شجاعة نادرة حتى حمل عليه العدو وقتلوه . ولم يهب القتل بفضل تشجيع أمه التى ضربت المثل الأعلى فى الشجاعة والتضحية فى سبيل إعلاء شأن الوطن .

وليس أدل على جرأة المرأة وشجاعتها من ذلك الحوار الذى دار بين معاوية وبين الدارمية ، فقد روى القلقشندى (صبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٩ — ٢٦٠) أن معاوية حجّ فسأل عن امرأة من بنى كنانة تسمى الدارمية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم فجىء بها ، فقال لها : ما حالك يا ابنة حام ؟ قالت : لستُ لحام أدعى ، إنْ عِبْتَنى أنا امرأة من بنى كنانة . قال: صدقت أتدرين لِمَ أرسلتُ إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : بَعَثْتُ إليك لأسألك علامَ أَحْبَبْتِ علياً وأبغضتنى ، وواليته وعاديتنى ؟ قالت : أو تعفينى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أعفيك . قالت : أما إذ أبيت ، فإنى أحببت علياً على عدله فى الرعية وقَسْمِه بالسَّوية ، وأبغضتُك على قتالك مَنْ هو أولى بالأمر منك ، وطلبك ما ليس لك بحق . وواليتُ علياً على ما عُقد له من الولاية ، وعلى حبه المساكين وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفك الدماء وجَوْرك فى القضاء وحكمك بالهوى . قال : ولذلك انتفخ

بطنك وعظم ثدياك ... قالت: ياهذا، بهند كانت تضرب الأمثال لا بي . . . قال لها : فهل رأيتِ علياً ؟ قالت : لقد كنت رأيته . قال : كيف كنتِ رأيته؟ قالت : رأيته لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك . قال لها : فهل سمعتِ لكلامه ؟ قالت : نعم ! والله كان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الطَّست من الصدأ . قال : صدقتِ ، فهل لكِ من حاجة ؟ قالت : وتفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم ! قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها . قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذّي بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأصلح بها بين العشائر . قال : فإن أعطيتك ذلك فهل أحُلُّ عندك محل عليّ ؟ قالت : ماء ولا كصدّاء ، ومرعى ولا كالسَّعدان ، وفتى ولا كمالك يا سبحان الله أو دُونَه . فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلم مني إليكم — فمن ذا الذي بعدي يُؤَمَّل للحلم؟
خذيها هنيئاً واذكرى فعل ماجد — جزاك على حرب العداوة بالسِّلم

ثم قال : أما والله لو كان علياً ما أعطاك منها شيئاً . قالت : ولا وبرة واحدة من مال المسلمين

وممن اشتهر من نساء العرب في ذلك العصر أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، وبنت عبد العزيز بن مروان ، وأخت الخليفة عمر بن عبد العزيز . قال المسعودي في مروج الذهب (ج ٢ ص ١٥٢ — ١٥٣) : وفد الحجاج بن يوسف على الوليد في بعض نزهه ، فاستقبله . فلما رآه ترجل له وقبّل يده ، وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية ؛ فقال له الوليد : إركب يا أبا محمد ! فقال : دعني يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنك ، فعزم عليه الوليد حتى ركب ، ودخل الوليد داره ، وتفضّل في غلالة ، ثم أذن للحجاج ، فدخل عليه الحجاج في حاله تلك وأطال الجلوس عنده . فبينا هو يحادثه إذ جاءت جارية فسارّت الوليد ومضت ، ثم عادت فسارّته ثم انصرفت . فقال الوليد للحجاج : أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد ؟ قال : لا والله . قال : بعثتها إليّ ابنة عمي أم البنين ، بنت عمر ابن عبد العزيز تقول : ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة ؟ فأرسلت إليها أنه الحجاج ، فراعها ذلك وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق . فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ! دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك ، ولا تطمعهن في غير نفسك ، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن . وإياك ومشاورتهن في الأمور ، فإن رأيهن إلى أَفْنٍ ، وعزمهن إلى وهن ؛ واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تُملِّك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تُطل الجلوس معهن ، فإن ذلك أوفر لعقلك ، وأبين لفضلك . ثم نهض الحجاج فخرج ، ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! أحب أن تأمره غداً بالتسليم عليّ ، فقال : أفعل . فلما غدا الحجاج على الوليد قال له : يا أبا محمد ! سر إلى أم البنين فسلم عليها . فقال : أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين . فقال : لا بد من ذلك . فمضى الحجاج إليها فحجبته طويلاً ، ثم أذنت له فأقرته قائماً ولم تأذن له في الجلوس ، ثم قالت : إيه يا حجاج ! أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟ أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد في الاسلام (تعني عبد الله بن الزبير) . وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام ، وأنت في أضيق من القرن ، فأظلتك رماحهم ، وأنجاك كفاحهم . ولولا ذلك لكنت أذل من النقد . وأما ما أشرت على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه ، فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقه بالأخذ عنك والقبول منك ، وإن كنّ ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ولا مصغ إلى نصيحتك . قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول :

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة — فتخاء تفزع من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى — بل كان قلبك في جناحي طائر

أخرجنه عني ! فدخل إلى الوليد من فوره ، فقال : يا أبا محمد ! ما كنت فيه ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان

بطن الأرض أحبّ إليّ من ظهرها . فضحك الوليد حتى فحص برجله الأرض ثم قال : يا أبا محمد إنها بنت عبد العزيز

ومن مظاهر الترف فى دمشق حاضرة الأمويين أنه كان لكل دار فناء مستطيل على جوانبه أعمدة من الرخام ومماش مرصوفة بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة . وفى الفناء نافورة يحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية الرائحة، وتظللها أشجار البرتقال والليمون، وأمام الباب شباك يوضع فوقه الطست والإبريق للوضوء — وكانت قصور الأغنياء مكونة من طابقين أحياناً — وفى الشتاء تكسى الحجرات بالسجاد الثمين وتدفأ بالمنهل (الموقد) . أما فى الصيف فكانت النافورات والنوافذ كفيلة بتلطيف حرارة الجو . وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربى أو مطلية بالذهب. ولم تكن هناك مقاعد، فإذا كان صاحب الدار من أصحاب اليسار ، وضعت السجاجيد بعضها فوق بعض لتكون بمثابة مقعد له

وكان قصر الخليفة الأموى بدمشق غاية فى الأبهة . وقد ازدانت جدرانه بالفسيفساء، وأعمدته بالرخام والذهب، وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر . وقد لطف جوه النافورات والمياه الجارية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة . وقد شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم الذى ولى بلاد الموصل فى عهد هشام ابن عبد الملك ، داراً منيفة من الرخام الخالص والمرمر ، عرفت بالمنقوشة لما تمتاز به من النقش البديع ، كما بنى خانات (فنادق) فى الموصل . وقد رأى الحر ما يعانيه أهل الموصل من المشاق فى سبيل الحصول على ماء الشرب ، فشق قناة لا تزال باقية إلى اليوم ؛ وغرس الأشجار على ضفتيها حتى أصبحت بمثابة متنزه عام لأهل المدينة

وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ويصنعونها من وبر الجمل . وكانوا يرتدون فى الحرب أزدية خاصة فيلبسون السروال عادة ورداء قصيراً بدلاً من الثياب الفضفاضة (الواسعة) المتدلية . أما لباس الرأس فهو العمامة كما كانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة . وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقى الرقبة حرارة الشمس . وكانت الملابس تختلف تبعاً لثروة الناس ومركزهم الاجتماعى ونوع عملهم . فكسوة الفقيه والكاتب تختلف عن ثياب الجند . وكان رؤساء القبائل وغيرهم من علية القوم يرتدون قباء يصل إلى الركبتين يعلوه سروال ثم جلباب فضفاض يتدلى إلى العقبين ويشده من الوسط حزام من الحرير ، ويلبسون فوق كل ذلك الجبة أو القباء .

وكانت ثياب المرأة تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد . وكانت إذا خرجت من بيتها ترتدى ملاءة طويلة تغطى جسمها وتقى ملابسها التراب والطين ، كما كانت تلف رأسها بمنديل يربط فوق الجبهة .

وكان العرب يكتفون بالقليل من الطعام ، فلم يتجاوز طعامهم اللون أو اللونين . وكان خير أطعمتهم الثريد وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم . وقد تغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها . وفى عهد الأمويين استعمل العرب الفوط والملاعق كما كانوا يجلسون على الكراسى حول مائدة الطعام التى كانت تكسى بمفرش من القماش .

حسن إبراهيم حسن

محمد الأديب الأعظم

للأستاذ دريني خشبة



لا أدرى لماذا يشفق الكتاب أن ينعتوا النبى الكريم بالأديب العظيم ؟! هل فى ذلك سبة أو فيه حط من قدره صلى الله عليه وسلم؟ وإذا لم يكن الرجل الذى أوحى إليه بهذا القرآن أديباً فماذا يكون الأديب ؟

لقد ترك النبى فينا كتاب الله وسنّة النبوة ، وفيها جوامع الكلم التى لم يؤتها إلا هو . ولقد علم بهذين ما لم يعلم فيلسوف بفلسفته ، ولا أديب بأدبه ، ولا نبى بما أرسل به . . . أسلوب مُعجز ، ومعنى مُعجز ، واتفاق بين الأسلوب والمعنى معجز ، وغرض يشمل كل الكائنات معجز ، وحياة هى البطولة المعجزة ... وأمية لا تعرف القراءة والكتابة يسبح القُراء والكُتاب فى بحر لجى من قرآنها وحديثها . . . علماً وأدباً ولغة وبياناً وهدًى وتشريعاً وأخلاقاً ... فماذا يصنع الأدب غير ذاك ؟ الأديب يترك أثره فى حيز محدود من بيئته ، لأيام معدودات من زمنه ، ويكون بعد ذلك رجعاً كرجع الصدى فى تضاعيف ذكرياته ، حيث يكون شعراً فى ديوان ، أو قصة يلتذ بقراءتها أفراد ، أو درامة يستمتع بشهودها ملأ من الناس ، ثم ينصرفون فلا تكون لها فى أذهانهم إلا صورة أو فكرة قد تدفعهم إلى فضيلة أو تنهاهم عن رذيلة ... فماذا ترك الأديب الأعظم محمد بن عبد الله من هذا وذاك ؟! أستغفر الله بل ترك أدباً حيًّا يتغلغل فى نفوس الملايين من الناس للملايين من الأجيال حتى تقوم الساعة . يحضهم على الخير ، وينهاهم عن المنكر ، ويستهويهم بصور رائعة من أدبه الحق الذى نسميه الأدب الواقعى يُشرب قلوبهم المحبة الخيّرة النيّرة ، ويعمرها بالسلام القائم الدائم ، ويعلمهم الإنسانية ، ويحبب إليهم الإخاء ، ويروضهم على المساواة... إلا فيما رفع الله به الناس بعضهم فوق بعض درجات

قد يقول قائل إن هذه الدعوى من باب إقحام الدين فى الأدب والأدب فى الدين .. لأن الدين هو الذى صنع كل هذا .. ونحن نقول إن الدين هو الذى صنع كل هذا حقاً ولكنه صنعه بأسلحة شتى ووسائل متفاوتة ، وقد كان أمضى هذه الأسلحة ، وأشرف تلك الوسائل .. هو الأدب .. فالرسول الكريم كان حلو الكلام أغر البيان طلّ المقاطع ، ذا قدرة عجيبة فى تنسيق حجته ، والتدقيق فى عبارته ، فى غير كلفة ولا صنعة حتى وهو فى مواقف الخطابة .. ولم يحفظ الأثر أنه حصر مرة أو أرتج عليه ، أو التاث عليه القول ، لا على المنبر ، ولا فى حلقة الدرس ، بل كان يتدفق ويشقق الحديث إذا اقتضى الموقف الإطناب ، ويقتصر على العظة الصغيرة بلفظها ، الكبيرة بفحواها إذا لم يقتض الحال غير ذلك

ثم ها هم أولاء الأنبياء جميعاً ... فمن منهم تحدى قومه بقوة البيان وصوغ الكلام وإعجاز الأسلوب ؟! وما ذلك كله إن لم يكن أدباً ؟ وماذا يكون صاحبه إن لم يكن سيد الأدباء ؟! إن الله الذى يَسّر القرآن بلسان محمد قد تحدى الناس أن يأتوا بشىء مثله ، فما استطاعوا ؛ وما يزال التحدى قائماً ، ولسوف يعجز البشر جميعاً عن أن يجيئوا بشىء مثل القرآن ... والقرآن وحى الله ، وقد يسره الله بلسان نبيه ، والقرآن تشريع ليس فيه جفاف القانون الوضعى ، وقصص من النسق الإلهى الذى لا يتملق الغرائز بالفتنة فى الحياة الدنيا بل يسمو بها إلى لذائذ الحياة العليا ؛ ثم عظة بالغة ، ودعوة إلى الحق ، ودستور للناس لا يعتوره نقص ولا تشوبه شائبة

هل الأدب قصة أو درامة فحسب ؟! إن كان هذا فقد قص النبى أحسن القصص وأقواه وأكثره حلاوة وطلاوة ، وأشده روعة وتأثيراً ... وأى قصص أشهى وأجلى وألذ مما يسر الله بلسان نبيه فى آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويعقوب ويوسف ويونس وهود ولوط وعيسى من أنبياء الله ؟!

أم يقولون إنها أخبار مروية فيما يؤمنون أنها الكتب المقدسة التى أنزل الله من قبل ؟ ! ونقول أجل ... ولكن أين هى هذه

الـكتب التى أنزل الله ؟ أباقية هى على ما أنزل الله لم يعتورها تغيير ولا تبديل ؟ ألم تشحنها أقلام الرواة والنُسّاخ بما طاب لهم وبما ندّت به أقلامهم ؟ ... أحقاً قد زنى داود ؟ أحقاً قد وقع جميع الأنبياء فى الخطيئة ؟ لقد جاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل مما لم تبدله قرائح البشر ، فبرّأ الأنبياء مما أُخذوا به باطلاً من الدنس ، ثم روى أخبارهم بلسان صدق عَلِىّ وبأروع بيان وأدق أسلوب ، ثم حدّث النبى بما يشبه أن يكون تعليقاً وشرحاً وتفسيراً فجاء بكل معجب وكل مطرب ... ثم حدّث بالأحاديث القدسية العالية التى مسرحها السماء ومُلهمها الله القدير، فأى درامات الـكتاب والشعراء أروع مما تحدث به النبى ؟ وأى حديث زخرفه قلم شاعر أو ناثر أو روائى يسمو إلى الحق الذى تنزل به جبريل على فؤاد محمد وما حدّث به محمد من تخاصم أهل النار وتحدث أهل الجنة ، والواقفين على الأعراف ، والولدان المخلدين ، والـكواعب الأتراب ، ومخاطبة العزيز اللطيف لمن فاز من عباده، وغيظ الـكافرين وما يقع بينهم وبين إبليس من شحناء وموجدتهم على الشياطين والنار تؤزهم ...؟

هذا هو القصص الحق الذى لم تبهرجه براعة مؤلف ، ولم يختلقه خيال روائى . وهذا هو قصص الله الذى خلق الإنسان علمه البيان ... الله الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ... الله الذى أرسل للناس نبياً عربياً من الأميين ، فقضى أن تكون أمية عجيبة مُعجزة تفهم كل شىء وتبى كل شىء ، وتبهر المتعلمين والدارسين بما لا يستطيعونه ولا يقدرون على مثله أو بعضه ... أمية أعدها الله لهذا الأمر العظيم إعداداً لا تقوى جامعاتنا الحديثة على شىء مثله ... أمية أبوّتها فى بنى هاشم ، وخئولتها فى بنى زهرة ، ورضاعها فى سعد بن بكر ، ونشأتها فى قريش ، وزواجها فى بنى أسد ، وهجرتها إلى الأوس والخزرج . فانظر كيف تقلبت فى القبائل فتمرست بها ، ووعت لغاها ، ووقفت على أسرار بيانها ، فلما بعثها الله لهـذا الأمر لم تضق ذرعاً بأحد ، ولم تضق فهماً بلسان أحد ، بل كانت تكلم كلاً بلسانه ، وترد على كل بلهجته .

بل هى قبل أن يبعثها الله لتبليغ رسالته كانت تحب الأدب وتشغف به ، فكانت تتردد على الأسواق تصغى إلى الشعراء والخطباء ، وتحفظ من الخطب ولا ترى حرجاً فى أن تروى منها [1] .

علل أحد البصريين أُمية الرسول الـكريم : فقال : « إن الله إنما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتعمد البلاغة لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر ، وعيافة الطير ، ومن العلم بالأنواء وبالخيل ، وبالأنساب وبالأخبار ، وتكلف قول الأشعار ، ليكون إذا جاء القرآن الحكيم ، وتكلم بالـكلام العجيب ، كان ذلك أدل على أنه من الله ... وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظاً من الحاسب والـكاتب ، ومن الخطيب والناسب ، ولـكن ليجعله نبياً ، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى ، فإنما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القليل ليجلى له الـكثير ... »

وقد تولى شيخ أدباء العرب أبو عثمان الجاحظ (البيان جـ ١ ص ٢٣٠) نقض هذا الـكلام فقال : « وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير ، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ، ولو زعم أن أداة الحساب والـكتابة ، وأداة قريض الشعر وجمع النسب قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ، ولـكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة ، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، ولو كان فى ظاهره والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب ، وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لأمره ، على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم ؛ ولـكنه أراد ألا يكون للشاعر متعلق عما دعا إليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق ، وليكون ذلك أخف فى المؤنة ، وأسهل فى المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التى كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقريض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة ، فأما فى غير ذلك فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطيق، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، وكانت آلته أوفر ، وأداته أكمل ... إلا أنهـا كانت مصروفة إلى ما هو أبعد ... وبين أن يضيف إليه العادة الحسنة ، وامتناع الشىء عليه من طول الهجران له فرق ... ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره

(١) فى البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٠٣ أن النبى (ص) سمع قس بن ساعدة وقال فيه « رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمـــر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا ، فاسمعوا وعـوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . » وجا فى كتب الأدب غير ذلك .

فى حال معجزة قط ، بل لم يره إلا وهو إن أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب ، وما عدم منه إلا الخط وإقامة الشعر ... الخ »

فالجاحظ هنا يحامى عن معرفة النبى لآداب العرب — وهو ما يعنينا — وعن إلمامه بما كان تفخر قومه ومحل نبوغهم ... ولما كان أعز ما يفتخر به العرب هو البيان فإنه لم يمنع النبى مانع إذا أراد البلاغة أن يكون أبلغ البلغاء ، وإذا أراد الخطابة أن يكون أخطب الخطباء ، وإنه إن أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب ... »

وهذا دفاع مجيد من شيخ الأدباء العرب عن النبى الأديب الأعظم فى معرض ما فهم أحد علماء البصرة من أمية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو دفاع رجل كان يهب حياته للأدب ، وكان يعنى بأدب الرسول خاصة ، وكان يصف كلامه فيقول[1] : « هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونُزّه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : « وما أنا من المتكلفين » فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقى فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة ، وشُيّد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق

« وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يُبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً ... »

والذى وصف به الجاحظ كلام الرسول قول حق ، وهو كان يفضل به كلامه صلى الله عليه وسلم على كل كلام العرب ، أما نحن فنجعل حكم الجاحظ أعم وأشمل . فليس فى كلام أحد من الفرنجة قاطبة كلام يشبه كلام الرسول فيما زعمه الجاحظ ... وقد يقول قارىء غير مسلم: « كاتب مسلم متحمس للرسول فهو لا يستطيع أن يقول غير هذا ! » كلا والله ... فلقد قرأت ودرست أدب الأقدمين شعراً ونثراً وخطبا ؛ ولقد قرأت ودرست أدب النهضة فى جميع الممالك الأوربية ؛ ولقد قرأت ودرست ووازنت بين أدباء عصر بركليس وأدباء عصر إليصابات ، وأدباء عصر لويس ، وأدباء القيصرية الروسية ، فلا والله ما وجدت أجدهم يرتفع إلى أدب الرسول ولا يحكيه غزارة ورقة وازدحاما بالمعانى وشمولا للاغراض . وهذه هى خطب ديموستين فى التبغيض فى الارستقراطية والتبشير بالديمقراطية ... أين هى من هذه المساواة العجيبة التى أقامها محمد بين هذه الملايين بقوله: إنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ؟ بل أين هذا الخطيب الوضيع المرتشى الذى يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، والذى فر من مواطنيه اليونانيين حتى إذا لاحقوه وضيقوا عليه عمد إلى السم ليضع حداً لمهزلة حياته الفياضة بالمخازى ؟ أين هذا الخطيب الذى يحفظ الأثر خطبه كأنها المثل الأعلى للخطابة من الرسول الكريم الذى لم يكن ينطق عن الهوى ، والذى ألف بخطبه بين أشد القلوب عنجهية وأفدحها جاهلية وأكثرها عصبية، فخلق منها أمة تعبد رباً واحداً بعد أرباب ، وتنتشر من الصحراء بمصابيح الهداية فتملأ المشرقين والمغربين نوراً وهداية وحكمة وعرفانا؟

ثم خطيب الرومان شيشرون ؛ هذا الرجل الذى فضح مارك أنطوان بخطبه الرنانة .. ماذا ترك لخير الإنسانية من كل ما كتب وخطب ؟ لقد كان محامياً مدرهاً ، فهل كسب للا نسانية قضية كهذه القضية التى كسبها لها محمد بن عبد الله ؟ لقد كتب فى القانون والفلسفة والأخلاق ، فهل حل معضلاتها المعقدة كما حلها محمد بن عبد الله النبى الأمى ؟ ولقد حفظ لنا الأثر كثيراً من خطبه ومقالاته، فهل فيها ما يرتفع إلى بيان محمد وبلاغة محمد؟ هل استطاع أن يضع للرومان دستوراً يحمى الجمهورية ويحول دون قيام الامبراطورية كهذا الدستور الذى أوحى به إلى محمد ، والذى يَسّره الله بلسان محمد ؟

ثم هذا دانتى ... هذا الكاثوليكى القح ... الذى يرفعه مؤرخو الأدب إلى ذروة المجد بما يهرج فى الكوميديا الإلهية ؟ ماذا جاء به من السحر فى هذه المنظومة ؟ لقد أثبتنا بما نشرناه

(1) البيان ج ٢ ص ٢٨

فى « الرسالة » أن كل شىء رائع فى هذه القصيدة ليس من صنع دانتى ، بل هو مما سرق دانتى من أخيلة[1] القرآن وبيان الأحاديث فى وصف الجنة ووصف الجحيم، وذلك بما انتشر من ثقافة القرآن وثقافة الأحاديث بعد الحروب الصليبية وقبلها عن طريق الأندلس وعن طريق صقلية إلى فرنسا ثم إيطاليا

ثم هـذا ملتون ... فأين ما جاء فى فردوسه من الحرب بين الشيطان وبين المسيح وأجناد المسيح مما جاء فى القرآن والحديث من تحاور بين الله العلى وبين إبليس، وبين إبليس وبين ملئه الذين أغواهم فأدخلهم النار ثم تبرأ منهم وهو يرسف معهم فى سواء الجحيم ؟!

ثم هذا جون بَنْيَن ! فاذا جاء به فى « رحلة الحاج » مما ليس له مثل بل أمثال تبذه وتزرى به فى أدب محمد النبى الأمى ؟

وهذا بيكون الأديب النائب العام والكاتب الأخلاقى الفيلسوف المرتشى الذى لم يرع لذى فضل عليه فضله ولم يكن عنده من الوفاء ما يجزى به ذوى الأيادى الغر عليه[2]، ماذا كتب فى فصوله فى الأخلاق مما لم يسبقه إليه الرسول الأعظم ؟

والأدباء العظام فى عصر لويس الرابع عشر: بيير كورنيل وديكارت وموليير وراسين ولافونتين ، إننا نقولها كلمة حق لا تصدر عن حماسة فحسب، بل عن تروية ويقين: إن المُثل الرائعة التى زاد بها هؤلاء فى تراث الفكر الانسانى والثقافة الانسانية هى قل من كثر مما ضاعف به النبى هذا التراث ، ونحن نقول المثل لأن النبى لم يكن ضحاكاً كموليير ولا فيلسوفاً كديكارت ولا مؤلف درامات كراسين ، بيد أنه مع ذلك أنشأ للانسانية مُثُلاً أسمى مما أنشأ هؤلاء ، وأنشأها كلها عن طريق الأدب

والأدباء الذين مهدوا للثورة الفرنسية . . . ڤولتير وديدرو وبومارشيه ورسو ... هل أنشأوا ثورة كهذه الثورة التى أنشأها محمد بن عبد الله وقام بها وحده ؟! وأين هى الثورة الفرنسية التى انتهكت فيها الحريات باسم الحرية ، وخضعت فيها الكرامات والشرائع لجنون الشعب وعربدة النساء ولوثة الأوشاب من تلك الثورة العظيمة فى سبيل الحق وخير الإنسانية وانتشال العقل من براثن الأغوال الحجرية التى كان يعبدها الناس ... هبل ويغوث ويعوق ونسر واللات والعزى وضمار ؟! أى الثورتين كانت أروع وأيهما كانت أعود بالخير على الناس وعلى الأفهام ؟!

(1) نحن نؤمن أنه ليس بالقرآن خيال إنما به الحق المحض ، إنما نحن هنا بمعرض دراسة أدبية فحسب

(2) سوف نكتب عن كل هؤلاء إن شاء الله فى فصولنا (أعلام الأدب)

لقد كتب روسو إنجيل الثورة، ، فهل رسم فيه ما رسم القرآن للناس أجمعين فى كل العصور ؟! وهل كاتب إنجيل الثورة كهذا الوحى الذى يسره الله بلسان محرر ؟!

ثم هؤلاء منشئو الأدب الألمانى : جوته صاحب فاوست ، وشيللر صاحب وليم تل ، ولسنج مؤلف لاوكون ، وهم الذين أعدوا الذهن الألمانى إعداده الذى غبر عليه قرن ونصف قرن ، الإعداد الذى لا يعرف شيئاً وهو المثل الأعلى غير القوة والغَلَب، هل جعلوا ألمانيا تقهر العالم فى أقل من عشر سنين كما جعل محمد أمته تصنع ذلك ؟ وإذا قدر لألمانيا أن تصنع ذلك ، فهل كانت تنشر الأمن والطمأنينة والعلم والنور ودين الحق بالسلام كما نشر العرب ذلك جميعاً فى ربوع العالم ؟ أم أنها كانت تستعبد الناس وتذلهم وتقول لهم أنتم ساميون وحاميون ... و ... آريون ... أما نحن فآريون نورديّون ؟ فى حين يقول محمد للناس : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى !! »

أما أدباء روسيا: لرمنتوف وجوجول وتولوستوى ودستوفسكى وترجنيف وبوشكين وجوركى ؟! ماذا أسلف هؤلاء جميعاً ؟! لقد مهدوا بأدبهم الباكى المتوجع البائس الفقير الغارق فى الدموع لهذه الشيوعية المخربة التى تستبد بالناس وتسومهم الخسف وتهدم مساجدهم وكنائسهم وبيعهم وتبيح نساءهم باسم الدولة ... فكأنهم تخلصوا من راسبوتين ليقعوا فى براثن ستالين !!

وبعد ... فنحن لا نحصى أدباء العالم هنا لنوازن بين ما انتهى إليه أدبهم وبين ما انتهى إليه أدب الرسول الكريم ... ونحن لا نقص من الآداب الرائعة التى لها قيمتها ولها أثرها لنرفع أدب نبينا بغير الحق، بل نحن نقارن بين مُثُل ومُثُل ونوازن بين خير كثير أصاب الإنسانية على يد رجل واحد وخير كثير أصابها على أيدى كثيرين ، وشتان بين الأدبين

أما أن يقول أحد إن الأدب هو القصة ، فلقد قص الرسول أحسن القصص وأروعه ، فى أحسن عبارة وأقوى أسلوب ... وأما أن يقول أحد إن الأدب هو الشعر ، فما كان محمد شاعراً ، ولم ينبغ له أن يكون شاعراً ، ومع ذلك فقد يَسر الله بلسانه فى القرآن من المعانى والأوصاف والأمثال والتشريع والحكمة وجمال الأداء ، وإعجاز التراكيب ، مالم يتيسر لشاعر من شعراء العالمين . وكذلك حديث رسول الله ، فهو ثروة ثانية من أروع صور الآداب ، ومنهل عذب للواردين

وأما أن يقول أحد إن محمداً لم يؤلف درامة ، فحسبه أنه كان

المروءة

مصادر مطوية

للدكتور بشر فارس



المروءة (أو المروّة) من الألفاظ التي يكثر ورودها في النصوص العربية القديمة ولا سيما في الكتب التي ألفها أدباء العهد العباسي . وهي ، من باب آخر ، من الألفاظ المشتبهة في اللغة العربية لتضارب الأقوال فيها وتدافع التعريفات لها . وقد عظم شأنها على تعاقب الأيام حتى تناولها المتكلمون والمتصوّفة فنزلت منزلة الفضيلة بل منزلة مبدإ « أخلاق » . وذلك ما دفع بعض المستشرقين والشرقيين أن يعدوها ، وهماً ، رأس الفضائل الجاهلية

والذي يبدو لي أن المروءة أفادت ، أولَ أمرها ، الرجولة الحسية أي شدة الأسر ، ثم الرجولة المعنوية أي السجايا الرفيعة ، سجايا السيد مثلاً . ولذلك قرنها نفر ممن تكلموا عليها بالسيادة أو السؤدد . وهذان المفادان : الحسي والمعنوي ، ظلا يتنازعان المروءة ، فاتصل الأول بالحياة المادية ولحق الثاني بمكارم الأخلاق . وقد غلب الجانبُ المعنوي الجانبَ الحسي بفضل الإسلام . (وهنالك أحاديث غير صحيحة في المروءة وعظمة شأنها) وأخذ ذلك الجانب الغالب ينتقل على مدار الأيام من موضع إلى موضع ؛ فدلت المروءة على العفاف والأدب والفضل والإنسانية والسرو ؛ ثم قامت لفظاً واقعاً على محاسن جمة ، على أقلام المحدثين والمتكلمين والأخلاقيين والفقهاء . وأما المتصوفة فأنزلوها منزلة الفتوة ، فتجاورت اللفظتان في ميدان الأخلاقيات المجردة . وقد اتفق لها أن تنحرف إلى هنا وإلى هنا على ألسنة العامة قديماً في الأندلس وحديثاً في مصر والشام

كل هذا الحديث مع ما تحته من التفصيل والتبيين تجده في فصل من فصول كتاب من هذا القلم يخرج باللغة العربية بعد أيام ، وعنوانه « مباحث عربية » وعنوان الفصل « المروءة في اللغة والعرف » . وقد انسقت إلى النظر في هذه اللفظة يوم كنت أؤلف « العرض عند عرب الجاهلية » ثم انصرفت إلى استجلاء غوامضها وتمحيص مدلولاتها باستقصاء المصادر والمراجع فنشرت فيها فصلاً في « تكملة دائرة المعارف الاسلامية » البارزة في هولندة (الجزء الرابع) .

وأما هذه المصادر والمراجع فمتشعبة غزيرة ، فيها المطبوع والمخطوط ؛ وفي القراء من أصاب في كتب الأدب أشباه « العقد الفريد » و« عيون الأخبار » و « الموشى » و « أدب الدنيا والدين » أبواباً في المروءة . بل هنالك كتاب أفرد لها ، عنوانه « مرآة المروءات » لأبي منصور الثعالبي (مصر ١٨٩٨) . ومن المصادر المطوية كتاب « مرآة المروّات » لعلي بن الحسن بن جعدويه ، كتبه للوزير نظام الملك (٤٥٦ — ٤٨٥هـ) وكتاب ابن جعدويه مُجرًى على أسلوب كتاب الثعالبي مع ميل إلى الناحية الدينية بل الصوفية . وقد اهتدى إلى مخطوط ابن جعدويه المستشرق

يمثل درامات الحق فوق مسرح الواقع ، وليس في الأدب المسرحي جميعاً ما هو أروع من إسلام حمزة أو موت حمزة ، وإسلام عمر أو مقتل عمر ، وهجرة محمد من وطنه العاق إلى مُهاجَره الصادق ، وصبر أصحابه على أذى قريش وكفران قريش ، ورمى المنافقين زوج الرسول بالإفك وصبر عائشة لذلك ... وهذه المئات والمئات منَ مشاهد الدرامة الكبرى التي قام بأدائها الرسول ، والتي رواها وقص فصولها في واقعه ، ويسر الله لسانه بذكرها في قرآنه

صلى الله عليك يا رسول الله إذ يسألك أبو بكر : لقد طُفتَ في العرب وسمعت فُصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدّبك ؟ فتقول : أدّبني ربي فأحسن تأديبي !

دريني خشبة

* * *

حاشية : للكلام بقية في رد شبهات الكتاب الأفرنج الذين عابوا أسلوب القرآن بكثرة التشابه فيه ، وأخذوا على حديث الرسول كثرة الغريب . فترجئ ذلك إلى موضعه في الأعداد الآتية

الأستاذ تيشنر F. Taeschner فوصفها فى المجلة الاستشراقيـة Islamica (الجزء الخامس ١٩٣٢) .

والذى فى نيتى ههنا أن أنشر مصدرين آخرين . أما الأول ففصل فى المروءة والسؤدد من مخطوط عنوانه « كتاب مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وبدايع الأوصاف وغرايب التشبيهات» لمجهول ، وقد أصبته فى المخطوطات المخزونة فى دار الكتب الوطنية فى ليدن ورقه ٤٠٩ .

وأما الثانى ففصل فى المروّة من مخطوط مخزون فى أياصوفيا تحت رقم ٢٠٤٩ ويقع فى ص ٢٠٦ . وقد أشار الأستاذ تيشنر إليه فى مقاله المنشور فى المجلة المذكورة ، ثم بعث إلى وسمح لى بنشرها، فله الشكر.

وفى المصدر الأول تعريفات وأقوال فى المروءة على أنها لون من ألوان السيادة وشرط من أشراطها . وأما الثانى ففيه محاولة لرد معنى المروءة إلى المدلول الأصلى من ناحية الاشتقاق ثم نظرة « أخلاقيـة » فى شأنها ، طرافتها ذلك التفريق الذى بين المرأة والرجل(١).

ا — مخطوط ليدن

(ص ١١) « الفصل السابع فى السودد والمروّة »

« قال النبى صلى الله عليه وسلم : تجافوا عن عقوبة ذوى المروة ما لم يقع حداً . وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه . قيل لقيس ابن عاصم : بِمَ سدت ؟ قال: ببذل الندى، وكف الأذى، ونصر المولى . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى: إن للناس وجوهاً يرفعون حاجة الضعيف فأكرمهم . وقال عليـه السلام : أقيلوا الكرامَ عثراتِهم . قال معاوية لابنه يزيد : ما المروة؟ قال: إذا ابتليت صبرت ، وإذا أنعم عليك شكرت ، وإذا قدرت عفوت . قال : أنت منى ، وأنا منك . وسئل بعض الحكماء عن المروة ، فقال : إسرار ما تحب [تحب] أن تعلن ، ومواطاة القلب اللسان. وقيل : المروة ألا تعمل شيئاً فى السر تستحى منه فى العلانية . يقال: كان سَلم بن نوفل سيد كنانة فجرح رجل ابنه ، فأتى به ، فقال له : ما أمنك (ص ١١ م) من انتقامى ؟ قال : فلم سوّدناك إلا أن تكظم الغيظ وتعفو عن الجار وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه ؟ فخلّى عنه . دخل جُذيم بن أوس الطائى على معاوية ، فقال : من سيدُكم اليوم ؟ قال: من احتمل شتمنا، وأعطى سايلنا [سائلنا] وأغضى عن جاهلنا، واغتفر ضَرَبنا [ضَرْبنا] إياه بمعصيّنا [بعصيّنا] . وقال عدىّ بن حاتم : السيد ، الأحمق فى ماله ، ذليل [الذليل] فى عرضه ، المطرح لحقده ، المعنّى [المعنىّ] بأمر عامته . يقال الارتقاء إلى السودد صعب ، والانحطاط إلى الدّناة [الدناءة] سهل. قال عمر بن عبد العزيز لرجل: من سيّدقومك؟ قال : أنا ، قال : ولو كنت كذا ما قلته . مال [قال] معاوية لوفد : كيف كان قطبة بن زيد فيكم؟ قالوا: كان إذا حضر أطعمناه، وإذا غاب شتمناه . قال: هذا والله السودد المحض . قال عمرو بن عبيد : لا يكمل مروة الرجل فى دينه حتى يكون فيه ثلاث خلال: يقطع رجاه مما فى أيدى الناس ، ويستمع الأذى فيحتمل ، ويحب للناس ما يحبّ [يحبُّ] لنفسه. قال ابن عمر: إنا معاشر قريش نعد الحلم والجود السودد، ونعد العفاف وإصلاح المال المروة . سأل معاوية (ص١٢) الحسن بن على رضى الله عنه — عن المروّة . فقال : حفظ الرجل دينه وإحرازه نفسـه من الدنس وقيامه لضيفه وآد [أداء] الحقوق وإفشاء السلام . بعث رسول من خراسان إلى سَوار بن عبد الله القاضى يسأله عن المروة ما هى ، فقال الإنصاف والتفضل . وقال على رضى الله عنه : ثلاث من كن فيه استوجب بهن أربعاً [ثلثاً تصويب فى النص] من إذا حدث الناس لم يكذبهم ، وإذا وعدهم لم يخلفهم [يخلفهم]، وإذا خالطهم لم يظلمهم؛ فإذا فعل ذلك فقدوجبت إخوته وكلت مروته وحرمت غيبته . قال ابن عمر : ما رأيت أحداً أسود من معاوية ، قيل : يا أبا عبد الرحمن : أهو خير من أبى بكر وعمر ؟ قال : هما خير منه، وهو أسود منهما . قيل له: هو أسود أم عثمان؟ قال : إن عثمان لسيّد ، ومعاوية أسود منه . »

ب مخطوط ايا صوفيا

وأما المروة فلها اشتقاقان من أحدهما يقتضى أن يكون هى والإنسانية متقارنتين ، وهو أن يجعَل من قولهم : مَرُءَ الطعام وامرأة [وأمرأه] إذا تخصص بالمرى لموافقته الطبع ، فكأنها اسم الأخلاق والأفعال التى تقلّبها [تقبلها] النفوس السليمة. فعلى هذا

---

(١) ما يقع تحت هاتين العلامتين ( ) يفيد نصا مزيداً من عندى وما يقع تحت هاتين العلامتين [ ] يفيد تصويبا من عندى لمخطوط ليدن ومن عند الأستاذ تيشنر لمخطوط ايا صوفيا .

روح الإسلام في العبادة

للأستاذ عمر الدسوقي



من ذياك المخلوق المتجبر الذي تعنو له جباه الضواري في أدغالها ، وتفرق من طلعته الوعول في معاقلها، ويمعن السمك في مساربه هلعاً لدنوه ، وتهابه الطيور في أوكارها، والصلال في أجحارها ؟ ! هو الإنسان ! درج على الأرض فكان سيدها المطاع، ولم تعجزه إلا تلك القوى السماوية ، من ريح زفوف عاتية ، أو رعود قاصفة مدوية ، أو زلازل تميد لها الأرض تحت قدميه ، أو براكين تثور محنقة غاضبة أمام عينيه . كيف يدرأ شرها ، أو يحوز رضاها ؟ سجد لها وتضرع ، وتزلف بالقربى والابتهال . ولكنه خلق وفي نفسه عنجهية وكبرياء ، فأخذ على مر القرون يتنكر لها ، ويشمر عن ساعده لتسخيرها وصرعها ، وكلما ذاق لذة الظفر مرة ، قوى إيمانه بقدرته ، وجلال عقله ، وكفر بها ، ولج في كفرانه ؛ بيد أنه أحس من أعماق فؤاده نداء خفياً أن ثمة إله آخر ، أنت والدنيا والطبيعة صنع يده القادرة ! ما بالك كلما حز بك أمر ، أو تكأكأت عليك المصائب ، أو خطف الموت فلذة كبدك وأحباءك ، تنادي في ذلة وضراعة ذلك الإله الذي لا تراه ، أنْ رفقاً يا رباه ، فليس لي حول ولا طول أمام جبروتك وعظم ملكوتك . قرت في جنانه تلك العقيدة فهدأ بلباله ، وطفق يلهج بما يكنه فؤاده من حب ومعرفة بالجميل ، وندم وتوسل ، لذلك الإله الدائم اليقظة ، الذي ينشر رحمته على الدنيا جمعاء . وهل الصلاة والعبادة سوى مظهر من مظاهر ذلك الشعور الذي يفيض به قلب الإنسان ؟

فكر في كنه ذلك الإله ، ثم فكر حتى أجهده الفكر ، وكبا عقله في الميدان صريعاً ، وزين له الشيطان أن يصور ذلك الإله ويرمز له ، ويعبد الرمز تقرباً إلى الله وزلفى ؛ ثم أتى عليه حين من الدهر نسي مغزى هذه الرموز والأصنام ، فخالها آلهة قادرة ، يتحكم كل منها في شأن من شئون العالم ؛ وتوهم أن لها ما للإنسان من شهوة ورغبات ، وإحساس وشعور ؛ وما دام الإنسان لا يقر عيناً ويطيب نفساً إلا إذا عَلَّ من معين المادة حتى روى ، فكذلك الآلهة لا بد لها من القرابين والضحايا . شاد المعابد والهيا كل وأخذ يتعبد كما زخرف له الشيطان ؛ ولهذا كانت العبادة عند قدماء الهند تتألف من الطهارة والقرابين ، وظلت هكذا ردحاً من الزمن غير قصير ، حتى آب الإنسان لرشده وارتقت الفكرة الدينية عند فلاسفة الهند الأقدمين ، ففهموا للطهارة والقربى مغزًى غير ما أدرك أسلافهم ؛ بيد أن البرهمية لم تحد قيد شعرة عن إيمانها بالقربان، ولا سيما بعد أن قويت عقيدة الدهماء بالكهنة، وما حبتهم الآلهة من فضائل خفية هي حَبْس عليهم وعلى ذرياتهم من بعدهم

اعتقد طغام الناس أن الآلهة لن تتقبل القربان ، إلا إذا باركه الكاهن ، وقدمه بيده ، وبطريقة معينة لا تغيير فيها ولا تبديل ، مرتلاً خلال ذلك أناشيد وأدعية ، يرددها لسانه ، ولا يحس بها جنانه ، بينما يقف المتقرب مكتوف اليدين يسمع ويرى دون أن يضرب بسهم ، أو يفوه بكلمة ، في هذه العبادة التي أقيمت من أجله . لم تكن العبادة تقدر بسيرة المتقرب الخلقية ، وفضائله ومزاياه ، أو رذائله ونقائصه ، ولكن بحذق الكاهن وبراعته

يكون اسماً للأفعال المستحسنة كالإنسانية . والثاني أن يكون من المرء فيُجعل اسماً للمحاسن التي يختص بها الرجل دون المرأة فيكون كالرجولية؛ وذلك أخص من الإنسانية، إذ الإنسانية يشترك فيها الرجال والنساء ، والمروة أخص بكثير مما يكون فضيلة للمرأة يكون ذاية [رذيلة] للرجال كالبله والخفر والبخل والجبن، ولهذا قيل الخلايق الرجال [خلايق الرجال] أرذل أخلاق النساء ، فالكيس والشجاعة والجود رذيلة لهن . »

بشر فارس

فى تأدية المراسيم الدينية غير متلعثم اللسان ، أو جامح اليد ، وإلا بطل ثوابها وحبط عملها ؛ وما على المتعبد إلا أن يعتقد بأن الآلهة سوف تسبغ عليه أبراد الرحمة ضافية ، جذلاً بما قدمت يداه

أما الزرادشتيون ، والصابئون من الفرس ، فقد عاشوا فى دنيا من الصلوات والدعاء ؛ فكان الزرادشتى يتمم بالدعاء ، إذا عطس ، أو قلم أظفاره ، أو قص شعره ، أو حاك ثيابه ، أو طهى طعامه ، أو أشعل مصباحه ، ليلاً ونهاراً ، لا يكل ولا يمل

دانوا بالعبادة بادئ ذى بدء لإلههم « أورمزد » ، ثم ما لبثوا أن قدسوا السماء وبروجها ، والأرض وجبالها ، والوحوش الكاسرة ، والأشجار المتباينة ، وكان لنبات القمر[1] منزلة فى نفوسهم لا تسامى

وما كانت عبادتهم سوى تكرار صيغة من الدعاء ، فقدت ما بها من حرارة ، وذهب مالها من طلاوة وتأثير بكر الزمان ومر العشى . أجل ! إن المثل الخلقية كانت جلية عند بعض مفكريهم ، ولكن الشعب لم يدرك لها رسماً . أضف إلى ذلك أن الكهنة خصوا أنفسهم بالحياة الروحية ، وحرموها على سواهم من الناس ؛ كما شيدوا حصوناً من القداسة كانت لهم معقلاً يباعد بينهم وبين غيرهم ، ويحول بين الناس وبين المتعة الروحية السامية ؛ لأن الكهنة ابتدعوا نوعين من العبادة ، أولها حكر عليهم وعلى طائفتهم ، وثانيهما مباح للناس أن يساهموا فيه[2]

أما اليهودية فجاءت خلواً من الأوامر التى تحث على الصلاة ، اللهم إلا صيغة واحدة من الدعاء يلفظ بها رب الأسرة ، حين يدفع جعل الكاهن ، أو يتقرب بباكورة ماشيته وزرعه ، مثنياً فيها على الله أن مكنه من القيام بامتثال أوامره ، ومتوسلاً إليه أن يسبغ بركاته على بنى إسرائيل

ثم سمت الفكرة الروحية حول الذات العلية ، عند عامة اليهود ، ووعاظهم ، واختفت عقيدة التجسيم من أفئدتهم ، وأدرك الناس أن العبادة شرعة يصل بها العبد إلى مولاه ؛ ومن ثم أصبح اليهود بالعرف والعادة أمة ذات صلاة ، على الرغم من فقدان النص الصريح

(١) يسمى بالسنكريتيه Soma ، وعند الزرادشتيين Homa

(٢) راجع the Gentile and the Jew لمؤلفه Döllinger ص ٣٩٨ الجزء الأول .

ليس الزند أفستا سوى مجموعة من الصلوات والأدعية والتوسلات ، لعدد كبير من الآلهة ، يمثل « أورمزد » بينها المكانة الأولى .

راجع كذلك ten Great Religions لمؤلفه Clarke ص ١٨٧ ، ٢٠٢

فى شريعتهم . ولكن الصلاة عادت آلية فى كثير من الأحيان ؛ لأن الشعب لم يجد مناصاً عن طلب الكاهن ليؤمهم ، إذ لم يكن بين أيديهم تشريع خاص من الله يرجعون إليه ؛ ونفقت سوق الكهنة وأخذوا يبيعون كلمات الله بثمن بخس دراهم معدودات . ألم يعنفهم القرآن على ذلك الجرم فى سورة البقرة مخاطباً بنى إسرائيل : « ولا تَشْتَرُوا بآيَاتِى ثمناً قليلاً ، وإيَّاىَ فاتَّقُون » ؟؟

ثم مثلت تعاليم المسيح تطوراً جديداً فى شعور الإنسان الدينى وقدرت الصلاة حق قدرها ، واقتفى الحواريون خطى إمامهم فعكفوا على عبادة الله وحمده ؛ ولكن المسيحية ، جاءت كاليهودية ، خلوا من قواعد معينة ، ونظم محدودة ، يسترشد بها الدهماء فى صلاتهم ، فتركوا على مر الزمن ألعوبة فى يد القسيسين الذين أخذوا على عاتقهم ، تنظيم العبادة ، وبيان أوقاتها ومراسيمها ؛ ومن ثم ألفت كتب الصلاة والأنظمة الدينية ، والمجالس الكنسية ؛ لتبين للناس ما يعتقدون وكيف يتعبدون ؛ ومن ثم برزت للوجود عبادة الرهبان الآلية ، وأناشيدهم وترتيلاتهم التى لا روح فيها ؛ وأخذ الناس يهرعون إلى الكنائس يوماً من كل أسبوع ، ليأخذوا ما فاتهم من الغذاء الروحى خلال الأيام الستة الأخرى .

كانت هذه لحال الديانات فى القرن السابع الميلادى ، حين سطع نور الرسالة المحمدية فى أفق صحراء العرب ، يهدى الناس إلى دين جديد ، يشبع نهم نفوسهم ، ويسمو بأرواحهم إلى الدرجات العلى . دع جانباً ما كانت تهيم فيه الأمة العربية ذاتها ، من ضلال ، وفساد فى العقيدة ، وإسفاف فى الفكرة الدينية ، وعجز عن إدراك عظمة الإله وقدسيته ، وطوافها بأصنام من الحجر الصلد ، لا تحير جواباً إذا نوديت ، أو تنفع إذا دعيت ، أو تشع فى الفؤاد نوراً أو تبعث فى الروح يقظة إذا عبدت وقدست .

نفذ الإسلام إلى قرارة الروح الإنسانية ، ورأى تحرقها للافصاح عن حبها وشكرها لله ، ففرض صلاة ، تسعد بها النفوس ، وتنبل الأخلاق ، وتسمو العقول ؛ وجعلها على أوقات ، حتى لا يسبح الفكر الإنسانى فى عالم الماديات ، وينسى غذاءه الروحى . وقد أوضح صاحب الرسالة عليه السلام كيفية أدائها قولاً وفعلاً ، لئلا يترك الناس فوضى فى عباداتهم .

وغدا المجال فسيح المدى أمام كل فرد ، ليعبد الله بقلب يفيض حباً وضراعة وإخلاصاً .

إن الصلاة التي تؤدى ، والنفس تعمرها الخشية والخشوع ، لجديرة أن تجعل من الإنسان مَلَكاً يغمر الناس حباً وحناناً وخيراً وإحساناً ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر »

وهاك ما قاله أحد كتاب الإنجليز مرة : تتجلى عظمة الإسلام في أن معابده ليست مما تشيدها الأيدي ، وأن المسلم يستطيع تأدية صلاته في أي مكان شاء ، تحت القبة الزرقاء ، أو على ظهر البسيطة »(١) أي بقعة يصلي فيها المسلم مخلصاً لله حنيفاً فهي له مسجد « جعلت لي الأرض كلها مسجداً ، وتربتها طهوراً »(٢)

لم يقدر المسيحيون ما في صلاتنا من قوة روحية ومعنوية ، ونبي الإسلام يقول : « جعلت قرة عيني في الصلاة » لأنه يناجي ربه ويجرد روحه أمام بارئه دون وساطة أو شفيع . وقد ثبت عن الثقاة أنه كان يبكي ، وينتحب في صلاته ، ويتململ تملل السليم تضرعاً إلى الله ، وإنابة له .

لا رهبانية في الإسلام ؛ لأنه دين سمح ، سهل ، يكفل خيري الدنيا والآخرة ، ولم يدع أي شيء يحول بين العبد وربه : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » وهذا ما جعل الإسلام يهزم البوذية والزرادشتية في عقر دارهما ، ويدخل الناس فيه أفواجاً من كل أمة ونحلة ؛ هرباً من عتو الكهنة واغتصابهم لحريتهم ، وتحكمهم في أرواحهم(٣) .

كل مسلم مكلف بمعرفة دينه ، والتفقه فيه ، فلا طوائف دينية في الإسلام ، ولا كهنة حباهم الله القداسة والقربى ، بل الناس أمام الله سواسية كأسنان المشط ، أكرمهم عنده أتقاهم . والتشفع بالأولياء ، في شرعة الدين الحقة ، ضرب من البدع وانحراف عن جادة الصواب ، وروح الإسلام .

ربما توهم بعض الناس أن التقرب إلى الله بإراقة دماء الأضحية من تعاليم الإسلام ، ولكن هذا باطل لأن نحر الأضاحي في عيدنا الأكبر تذكرة بما قام به سيدنا ابراهيم لا غير ، فضلاً عما فيه من إطعام البائس والفقير ؛ ولذلك يُهدى ثلثها ويُتصدق بثلثها ، ويُؤكل ثلثها الباقي .

جعل الإسلام طهارة البدن شرطاً في صحة الصلاة ، وفي الوقت ذاته نص على أن مجرد الطهارة البدنية لا يغني أمام الله فتيلاً ، إذا لم تصحبها طهارة في الروح ، وإخلاص في القلب ، وخلوه من الكبر والرياء ، والحسد والبغضاء .

يستقبل المسلمون جميعاً مكة في صلاتهم ؛ حتى يظل مهد الإسلام الذي انبثق منه هذا النور الفياض ، والذي شاهد أشعته الأولى تبدد دياجير الجهل ، ملء سمع المسلمين وأبصارهم ؛ وحتى يتمثلوا موطن ذياك الصراع العنديف بين الحق وصولته ، والباطل ودولته ، وكيف حطمت الأصنام وطهرت الأرض من أدران البغي والعدوان ، والعشق والدعارة ؛ وحتى يتذكروا أن إخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها يشاطرونهم شعورهم ، ويولون وجوهم صوب هذه البقعة المباركة كما يتوجهون ، وأن المسلم عضو في جماعة عظيمة تملأ فجاج الأرض ، يربطها دين واحد ، ويحفزها رجاء واحد ، وتؤمن بإله واحد .

تلك هي روح الإسلام في فرع واحد من فروع العبادة ، ولولا خشية الإطالة لبينت ما في الصوم والزكاة والحج من فكرة سامية وروح عالية .

محمد الدسوقي

(١) راجع Our Indian Muslamans لمؤلفه Hunter ص ١٧٩
(٢) حديث شريف
(٣) راجع كتاب الدعاية الاسلامية للسير توماس أرنولد « الاسلام في بلاد فارس »

دار مؤمنة

للأستاذ محمد سعيد العريان



« ضلّت البشرية إن كان هذا مبلغها من العلم بالله ! »

همس بها « زيد » في أذن صحابته فالتفتوا إليه مذعورين يسألونه الصمت والحذر !

هذه بطون قريش جميعاً في عيد لهم عند صنم من أصنام الجاهلية مُلبّين ضارعين يعظّمونه وينحرون له عاكفين عليه . ذلك شأنهم في كل عيد ..

وأولئك أربعة نفر من قريش قد اجتمعوا لغير ما اجتمع آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم من سائر قريش ، ينظرون إلى القوم في ضجيجهم حافين حول المعبود الأخرس لا يتكلمون ، وعلى شفاههم بسمات ، وفي أعينهم نظرات يخافتون بها ، وفي صدورهم رغبات مكبوتة ، لو تأتّى لهم لأهوَوا على هذا المعبود فكبّوه على وجهه جُذاذاً محطّماً !

وانتبذ الأصدقاء الأربعة ناحيةً يتناجون في همس ، وإن المكان ليضجّ بمن فيه بين داعٍ ومُلَبٍّ وسائل ومستغفر .

وعاد الرجل يقول لصحابته :

« أما والله إنكم لتعلمون ما قومكم على شيء ؛ لقد أخطئوا دين أبيهم إبرهيم . ما حَجَرٌ نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء ! »

ويؤمّن صحابته على ما يقول

ذلك زيد بن عمرو بن نفيل ، من بني عدي بن كعب ؛ وأولئك أصحابه : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان ابن الحارث .

أربعة نفر أضاء الله لهم على حين غفلة وضلال ، فسبقوا قومهم إلى التوحيد والإيمان بالله ؛ وجلسوا يداولون الرأي بينهم ، فأجمعوا أمرهم على أن يتفرقوا في البلدان يسألون أهل العلم ما يعلمون عن دين إبرهيم ...

* * *

وأقام زيد بن عمرو بمكة زماناً ، معتزلاً قومه وما يعبدون من دون الله ؛ لا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يخشى أن يباديهم بالعيب على ماهم فيه ، وحرّم على نفسه ما أحلّوا لأنفسهم من الميتة والدم وما ذُبح على النُّصب .

وعرف القرشيون ما أجمع عليه أمره ، فاعتزلوه وخلّوا بينه وبين نفسه ، لكنه لم يخلّ بينهم وبين أنفسهم ؛ فإنه ليقصد إلى البيت فيسند ظهره إلى الكعبة يقول : « يا معاشر قريش ، والله ما منكم على دين إبرهيم غيري ، وإنكم لتعبدون ما لا يغني عنكم من الله شيئاً . يا معاشر قريش ، إنكم لتأتون المنكر ، وتقارفون الشر ، وتئدون البنت ، وتكفرون النعمة . يا معاشر قريش ، أيّما رجلٍ منكم همّ أن يقتل ابنته خشية إملاق فأنا أكفيه مئونتها . يا معاشر قريش ... يا معاشر قريش ... »

فإذا فرغ من دعوته وجّه وجهه لله يقول : « لبّيك حقاً حقا ، تعبُّداً ورِقّاً ، عُذْتُ بما عاذ به إبرهيم . اللهم لو أني أعلم أيّ الوجوه أحب إليك عبدتُك به ، ولكني لا أعلمه ... »

ثم يسجد على راحته ويقول :

أنفي لك اللهمّ عانٍ راغمُ   مهما تجشّمني فإني جاشمُ

ولم يزل زيد على ذلك : يذكّر قومه ويعيب عليهم ما يعبدون ، حتى ضاقوا به ؛ فأجمعوا على نكايته وتربّصوا به الشر ؛ ثم ما زال به عمه (الخطّاب بن نفيل) يؤذيه وينال منه حتى ألجأه إلى (حراء) لائذاً بالله مستجيراً ؛ فوكل به الخطاب شباباً من سفهاء قريش يأخذون عليه الطريق وينالونه بما يكره إن همّ أن يعود إلى مكة ، خشية أن يُفسد عليهم دينهم ويتأثره بنوهم .

وكانت زوجه فيمن كان من عيون الخطاب عليه ، لا يكاد زيد يهم أن يدخل مكة حتى تُؤذِن به الخطابَ فيقف له ؛ ثم يتناوله

السفهاء من شبابهم بما يقدرون عليه حتى يعود على وجهه !

رجل فرد فى وجه أمة ، قد برئ منه أهله ، وتمردت عليه زوجه ، وتدامر سفهاء الإنس وشياطين الجن على مناهضته والوقوف له ؛ ولكنه من قوة الإيمان بحيث يغالب ما لا غلبة عليه !

وأىّ قوة فى الأرض تنال من الرجل يعمر قلبه الإيمان ؟

... وأرادوه على أن يلزم مكمنه من الجبل لا يبرح ، لا هابطاً إلى الكعبة يسبح الله فى البيت الحرام ، ولا مُصعداً يلتمس أسباب المعرفة فى بلاد الله ؛ ولكن صوتاً من وراء الغيب يهتف به ، ونوراً يتنوّره على بعد يضىء بين يديه ، وإيماناً يعمر قلبه يذلّل ما يتكاءده من عقبات على الطريق .

كان يؤمن إيماناً لا شك فيه أن للكون رباً غير ما يعبد الخطاب وبطون قريش ؛ هو رب إبرهيم وموسى ؛ فمنذا يهديه الطريق إليه ؟

... ووجد زيد غفلة من حراسه فأفلت يقصد قصده، متنقلاً بين الموصل والجزيرة إلى بلاد الشام ، يسأل عن دين إبرهيم ويبتغيه ومضى تتقاذفه البلاد يستطلع أنباءه بين أحبار اليهود ورهبان النصارى ؛ فما منهم إلا من يبشره بنبي قد أظلّ زمانه ، يبعثه الله بدين إبرهيم فى أرض الحجاز !

يا ناقُ سيرى عَنَقاً فَسِيحاً إن نبياً قد أظلّ زمانه يبعثه الله بالهدى ودين الحق فى أرض الحجاز . يا ناقُ هذا سبيلك إلى الوطن النائى يجمع شملك بالأحباب من آل عدىّ بن كعب فى أرض الهدى والسلام . يا ناقُ هذا فجر يوشك أن ينبثق بالنور فسيرى بى إليه أقبس من نوره نوراً لقلبي وسلاماً لروحى . يا ناقُ هـذا يومُك المأمول تبرق شمسه فى حواشى الأفق فأبلغينى مأملى قبل الغداة .

ذلك زيد بن عمرو بن نفيل فى طريقه إلى مكة يسعى نوره بين يديه إلى أمل يرجوه ، فإنه ليحدو بعيره مغتبطاً جذلان أن يعود إلى وطنه ومرتع صباه فيظفر بالحُسْنَيَين من لقاء الأهل والولد وصحبة النبي القرشى الذى أظلّ زمانه ؛ وإنه ليغذّ السير وفى نفسه شوق ولهفة ، وعلى لسانه تسبيح ودعاء !

وانطوى الطريق تحت أخفاف البعير الذى أنضاه السرى وجهد السفر ، فلما صار على قرب قريب من أرض الحجاز وأوشك أن ينعم بلقائه الأهل والولد ورؤية النبي الذى قطع مفازة الحياة سعياً إلى لقاء — عَدَا عليه مَن عدا من أهل السبيل فصرعه قبل أن يبلغ حيث يريد ، فإنه ليقول وهو يلفظ أنفاسه : « اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم ! » يرحمك الله أبا سعيد !

***

... وأشرق الصبح على أرض الحجاز ، وفاض النور من غار حراء يغمر بطحاء مكة ويسيل سيل العرم فيمحو الظلمات ويدخل منه فى كل دار قبس يضىء . وداعبتْ أشعةُ الصبح الضاحك نافذةَ الدار التى آوتْ زيد بن عمرو بن نفيل عُمْراً من عمره ، ثم هجرها ساعياً إلى الله يبتغى الوسيلة إلى دين الحق ، فكان ولده سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب — من السابقين الأولين فى الإسلام!

وعاد النور والإشراق إلى الدار التى يُعزَى إليها أولُ مذكر بدين إبرهيم على حين غفلة وضلال . وكان إيمان سعيد واستجابته لدعوة الحق امتداداً لدعوة أبيه فى الجاهلية وصفحةً مشرقة من التاريخ تنضمّ إلى صفحات !

ثم دار الفلك دورة، وإذا فتى عارمٌ من فتيان قريش يدخل دار سعيد متوشحاً سيفه، وفى عينيه شرٌّ وعلى لسانه وعيد، فما إن رآه سعيد وزوجه حتى سكت القرآنُ وخفَتَ الصوت وانكمش بعضٌ فى بعض؛ وأوشكت أن تنقض صاعقة تزلزل أركان الدار المؤمنة...

يا عجبا ! ما بال هذا الفتى قد نسى ما جاء له وَرَقَّ بعد عُرام وعنف ؟ هل كان يقصد إلا هذا الفتى العربىّ وزوجَه ، أن ينالها بأشد الأذى على ما صَبَأ وفارقا دين قومهما ؟

ها هو ذا فى موقفه منهما خاشع الطرف يتلو من صحيفة فى يده :

« بسم الله الرحمن الرحيم . طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأرضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى . . . » .

فما يكاد يفرغ من تلاوته حتى يلتفت إلى خَتَنِه سعيد وأختِه فاطمة بنت الخطاب يقول :

« دُلاَّنى على محمد حتى آتيه فأسلم ! »

ذلك عمر بن الخطاب وتلك دار سعيد بن زيد بن عمرو ؛ دخلها دخول الفاتك المتقحم لا تهدأ نفسه إلا أن يريق دما ؛ فما احتوته الدار حتى كان عمرُ غيرَ عمر !

إن فى بعض الأمكنة لَسِرّاً يهمس ، ونجوى تخافت ؛ وإن فى هذه الدار ...!

***

مِن مذكرات عُمر بن أبى ربيعة

ذاتُ النِّطاقيْن

للأستاذ محمود محمد شاكر



(قال عمر بن أبى ربيعة بعَقِب حديثه) :

... فوالله لقد جَهِدنا البلاء — يا أهل مكة — ولقد صبرنا على حصار الحجّاج سبعة أشهر أو تزيد فى غير حصن ولا منعة ، وإنّ أحدَنا ليُرى وقد لحقت بَطْنُه بظهره من الجوع والطَّوَى ، ولولا بركة تلك العين (يعنى زمزم) لقضينا ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنها مباركة ، إنهـا طعامُ طُعمٍ » لقد أشبعنا ماؤها كأشد ما نشبع من الطعام ، وما ندرى ما يُفعَلُ بنا مُنذُ اليوم . فلقد خَذَلَ « ابنَ الزُّبَير » أصحابه خذلاناً شديداً ، وما من ساعةٍ تمضى حتى يخرج من أهل مكة مَن يخرج إلى الحجاج فى طلب الأمان . ألا شاهتْ وجوه قوم زعموا أنْ سينصرونه، يحمون « البيت » أن يُلحَد فيه ، ثم ينكشفون عنه انكشافةً كما تَتفرق هذه الحمامُ عن مَجْثمها على الرَّوْع ...

وخرجتُ ، ومكة كأنها تحتَ السَّحَر خليَّة نحل مما يدوِّى فى أرجائها مِنْ صوتٍ داعٍ ومكبّر وقارىء ، وصمَدْتُ أريد المسجد فأسمع أذان « سعد » مؤذِّنِ ابن الزبير فأصلى ركعتى الفجر ، فيتقدم ابن الزبير فيصلى بنا أتمَّ صلاة ، ثم يستأذن الناس ممن بقى من أصحابه أن يُوَدِّع أمه « أسماء بنت أبى بكر الصديق » فأنطلق وراءه وما أكادُ أراهُ مما احتشدَ الناسُ فى المسجد ، وقد ماجوا وماجَ بهم يتذامرون ويحضّضُون ويُحرّضون ، وزاحمت الناس بالمناكب أرجو ألا يَفوتنى مَشهد أسماء تستقبل ولَدها وتودِّعه ولقد تعلَمُ أنه مقتول لا مَحَالة ، فما أكاد أدركهُ إلا وقد انصرف من دارها يريد المسجد ، وإذا امرأة ضَخْمة عجوز عمياء طُوالة كأنْ سرْحةٌ فى ثيابها، قد أمسكت بعُضادتى الباب تصرف وجهها إليه حيثما انتقل ، فوالله لكأنها تثبتُه وتُبصرُه ، وقد برَقت أسرَّةُ وجهها تحت الليل برق العارِض المتهلل ، ثم تنادى بأرفع صوت وأحنّه وألينه ، قد اجتمعت فيه قوةُ إيمانها وحنينُ قلبها : « يا عبد الله! يا بُنى، إنى أمك التى حملتك ، وإنى احتسبتك فلا تَهِن ولا تجزع . يا بنى ابذل مُهجة نفسك ، ولا تَبعد إلا من النار... يا عبد الله! لا تبعد إلا من النار، أستودعك الله يا بُنى ! » ثم تدور لتلج الدار فكأنها شِراعٌ قد طُوِى

رحمة الله عليكم يا آل أبى بكر ، لأنتم أصلبُ الناس أعوادا وألينهم قلوباً . وأحسن الله عزاءك ياذاتَ النطاقين، فلقد تجملتِ بالصبر حتى لقد أُنسيت أنك أمٌّ يجزع قلبها أن يَهلكَ عليها ولدُها فيتقطع عليه حَشاها

وانصرفتُ عنها بهمّى أسَى ، فو الله ما رأيت كاليوم أكسَبَ لعجب وأجدَ لحزنٍ من أمٍّ ثكلى يحيا ظاهرُها كأنه سراجٌ يَزهرُ ، ويموتُ باطنها كأنه ذُبالةٌ توشكُ أن تنطفىْ ، وذهبتُ ألتمسُ الوُجوهَ وأحزانها ، فما أرَى وُجُومَها وقُطوبَها وانكِسارَها ورَهَقَها وصُفرتَها إلا ذِلةَ النفس وخضوعَها واستكانتها وضعفَها وعلّتَها ، وأن المؤمنَ حين يحضُرُه الهمُّ أشعَثَ أغبرَ يَردُّه إيمانه — حين يؤمن — أبلجَ يتوقَّد ، ليكون البُرْهانَ على أنّ الإيمانَ صيْقلُ الحياةِ الدُّنيا ، يَنفى

وجلس سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل ، وعمر بن الخطاب ابن نفيل ، بمجلسهما إلى رسول الله غدوة ، فقالا : «يا رسول الله استغفر لزيد بن عمرو ! »

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، فإنه يبعث أمةً وحده ! »

رحمة الله عليه — محمد سعيد العريان

خَبَثَها ويجلو صَدَأها ، فأما ركبها من ذلك شيء ، عادَ عليها يُحادثها ويصقلها حتى يتركها بيضاء نقيّة ...

وما بلغتُ المسجدَ حتى رأيتُ ابنَ ذاتِ النِّطاقين قائماً بين الناس كأنه عمودٌ من طُولِه واجتماعه ووثاقة بنائه؛ وحضرتُه وهو يقول: « أيها الناس، عجِّلوا الوقاع، ولا يرعكمْ وقعُ السيوف، وصونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، فلينظرْ رجلٌ كيف يضرب ، لا تخطئوا مضاربكم فتكسروها ، فإن الرجلَ إذا ذهب سلاحُه كان أعزلَ أعضبَ يؤخَذُ أخذاً كما تُؤخذ المرأة . ليَشغلْ كلَّ امرئ قرنُه ، ولا يُلهينكم السؤالُ عني : أين عبد الله بن الزبير ؟ ألا مَنْ كان سائلاً عني فإني في الرَّعيل الأول » ... ثم يدفعُ في صدور أهل الشام دفعة عند باب بني شيبة كأنه صاعقةٌ ، وكأنه أسدٌ في أجَمة ، ويحيصُ أصحابُ الحجاج حيصة في منازلهم من الرُّعب، فلقد رأيتُه يقفُ ما يدنو منه أحدٌ، حتى ظننتُ أنه لا يُقتَلُ ، حتى إذا كان بين الركن والمقام رُمي بحجرٍ فأصاب وجهَهُ فبلغ منه حتى دَمِيَ ، وسال دمُه على لحيته ، وأرعشتْ يدُه... وغشيَه أصحابُ الحجّاج من كلّ ناحية وتعاوَوا عليه ، وهو يقاتلهم جاثياً أشدَّ قتال حتى قُتِل

وا رحمتا لك يا بنتَ أبي بكر !! أيُّ كبدٍ هي أشدُّ لوعةً من كبدِك ! لقد والله رُحمتِ رحمةً إذ كفَّ الله منك البصر ، لئن لم تكوني تجزعين لموته ، لقد كنتِ جزعتِ لما مثَّلوا به وحزُّوا رأسهُ ، ورفعوه على خشبة مُنكَّساً مصلوباً ...

وما كدتُ حتى أقبلتْ أسماء بين يديها كفنٌ قد أعدَّته ودخَّنته ، والناسُ ينفرجون عن طريقها في أعينهم البكاء ، وفي قلوبهم الحُزنُ والرُّعب ، قد انتُسفت وجوههم كأنما نُشروا من قبورهم لساعتهم ، وسكنت الأوصالُ ، وجالت الأحداقُ في محاجرها وكأنها همَّت تخرُج ، وتمشي أسماء صامدة إلى الخشبة صمداً وكأنها ترى ابنها المصلوب ، وكأنها تستروح رائحة دمه ، حتى إذا بلغَتْه — وقد وجم الناس وتعلقت بها أبصارُهم ورجفت بهم قلوبُهم — وقفتْ ، وقد وجدت رائحة المسك تحت ظلاله فقالت : « يا بُنيَّ طبتَ حيّاً وميّتاً ، ولا والله ما أجزعُ لفراقك يا عبد الله ، فمن يكُ قُتِل على باطل فقد قتلتَ على حق ، والله لأثنينَّ عليك بعلمي : لقد قتلوك يا بُني مُسلماً محرماً ظمآن الهواجر مصلِّياً في ليلك ونهارك »

ثم أقبلتْ بوجهها السماء ومدَّت يديها تدعو: « اللهمَّ إني قد سلَّمته لأمرك فيه ورضيتُ بما قضيتَ له ، فأثبني في عبدالله ثوابَ الشاكرين الصابرين . اللهمَّ ارحم طولَ ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب ، وبرَّه بأبيه وبي »

ووجم الناس وجمةً واحدةً ، وخشعوا خشعةً لكأن السماء والأرض صارتا رتقاً فما يتنفَّسُ من تنفَّس إلا من تحتِ الهمِّ والجهد والبلاء . وكأنّ مكة بيتٌ قد غُلِّقتْ عليه أبوابهُ لا ينفذُ إليه أحد ولا يبرحه أحد . وكأن الناس قد نزعت أرواحهم وقامت أبدانهم وشخصت أبصارهم ، وبدت أسماء بينهم وكأن وجهها سراج قد نُصَّ على سارية ، لا يزال يزهر ويتلألأ ، ثم تتلفت كأنما تتطلع في وجوه هذه الأبدان الخوالد ، وأضاء ثغرها عن ابتسامة . والله لقد بلغتْ من العمر وما سقطت لها سنٌّ ، وما زال ثغرها ترفُّ غروبه ثم قالت : « يا بَني ، لشد ما أحببتم الحياة وآثرتم دنياكم ، تخذلتم أخاكم ، وفررتم عن مثل مصرعه . يا بني يغفر الله لكم ، وجزاكم الله عن صاحبكم خيراً »

وأطرقت أسماء إطراقةً ثم رفعت رأسها تُومئ إلى الخشبة فوالله لقد رعدت فرائصي حتى تزايلتْ أوصالي ، وصرَّ الناسُ كأنما تقصَّفت أصلابُهم ، وإذا هي تقول: «ألا مَنْ مُبلغ الحجّاج أن المُثْلة سبّة للحيّ وما تضرّ الميّت . ألا مَنْ يُبلغ الحجّاجَ عنّي أن الشّاةَ إذا ذُبحَتْ لم تألم السَّلْخ »

وحامتْ أسماء وطافت بين الناس وبين هذه الخشبة ساكنةً صابرةً ، لا يُرَى إلاّ بريق وجهها يومضُ كأنه سيف صَقيل ، ثم طفقت تردّد « يا بُنيَّ » ، أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ أما آن لهذا الراكب أن ينزل ! يا بُنيَّ ليستأذنْ أحدُكم حجّاجَكم هذا أن يدفع إليّ هذه العظام . أدُّوا عني ؛ يرحم الله من أدّى عنّي »

فيجيء الرسول من قِبل الحجاج يأبى عليها أن تُدفعَ إليها عظامُ ابنها المصلوب ، ويجيء على أثره موكلون قد وكلهم بجثّته يقومون عليها يحرسونها ، كأنما خشي أن يحيا ميت قد حُزَّ

رأسه أن تمسّه يدُ أمّه . فوالله لقد سمعتْ أسماء وخُبِّرتْ فما زادت على أن وَلّتْ عنهم كما جاءت ما تقطر من عينيها قطرةُ دَمْع ، وما تُجاوز قوماً إلا جاوزتهم كأنهم فُسطاطٌ يتقوّض ، حتى ولجتْ بابها وغلّقته عليها

وانطلقتُ أنفضُ الناسَ بعينىّ ، فرأيتُ أخى الحارث (ابن عبدالله بن أبى ربيعة) وابن أبى عتيق (هو عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق) ما فى وجهيهما رائحة دم من الحزن والفرق . فقلت: ما هذا أوان جزع؛ انطلقوا بنا — يرحمكم الله — إلى دارها نواسيها ونترفق لها ، فوالله لقد تخوّفتُ أن يذهب بها الحزن عليه ، وإنه لفالقٌ كبدَها ما لقيته . ويطرق الباب ابن أبى عتيق . فيجيبُ الصوت من داخل : قد أسمعتَ فمه . فيقول : أنا ابن أبى عتيق يا أمّاه . ويؤذن لنا فندخل دارها تجفُ قلوبنا من الروع والرّهبة ، ونأخذ مجلسنا عند بنت أبى بكر الصديق خليفة رسول الله (ص) وزوج حواريّه عليه السلام ، وكأن قد تركنا الدُّنيا وراءنا وأقبلنا على الآخرة .

استضحكت أسماء حتى بدت نواجذُها وقالت : « مرحباً بكم يا بَنِىّ ، جئتم من خلل الناس تعزُّون أمكم فى عبدالله . يرحم الله أخاكم لقد كان صوّاماً قوّاماً ما علمتُ . وكان ابن أبيه الزبير أوّل رجل سلّ سيفه فى الله ، وكان أشبه الناس بأبى بكر

يا بَنِىّ ، والله لقد حملتُه على عُسْرة ، والمسلمون يومئذ قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطّفهُم الناس ، ولقد سعيت به جنيناً بين بيت أبى بكر وغار ثور بأسفل مكة فى هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبى بكر رضى الله عنه آتيهما تحت الليل بما يصلحهما من الطعام ؛ ويسكنُ الطلبُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيتهما بسفرتهما وسقائهما ونسيت أن أتخذَ لها عصاماً ؛ فلما ارتحلا ذهبتُ أعلّق السُّفرة فإذا ليس لها عصامٌ ، فوالله ما أجدُ ما أعلقهما به ، ووالله ما أجدُ إلا نطاق وأنا حُبلى مُتِمٌّ . فيقول أبو بكر : يا أسماء شُقّيه باثنين ؛ فأشقه فأربط بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة ؛ فلذلك ما سمّانى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذات النطاقين » يعنى فى الجنة . وأعود بعبدالله يرتكض فى أحشائى ، قد احتسبتُ نطاقى فى سبيل الله ؛ فوالله ما أجدنى احتسبتُ بنىّ عبدَالله اليوم إلا كما احتسبت نطاقى ذاكم . وأعود إلى دار أبى بكر ويأتى نفرٌ من قريش فيهم أبو جهل فوقفوا ببابها، فأخرج إليهم فيقولون :أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ فأقول : لا أدرى والله أين أبى ؛ فيرفع أبو جهل يده — وكان فاحشاً خبيثاً — فيلطم خدّى لطمةً يطرح منها قُرطى ، فتغُول بى الأرض الفضاء ، فوالله لما لقيتُ من حَجّاجكم هذا أهونُ عندى مما لقيتُ من لطمة أبى جهل وأنا بعبد الله حاملٌ مُتِمٌّ .

يا بَنِىّ إنى آخرُ المهاجرين والمهاجرات ، لم يبقَ على ظهرها بعدَ عبد الله منهم غيرى ؛ فلا والله ما حَسُنَ أن يَجزَعَ من هاجر — وإنّ شأن الهجرة لشديدٌ — وما حسنٌ أن يجزع من شهد الشاهد مع رسول الله صلى الله عليه ، وكيف وقد أربيت على المائة ؟

يا بنى جزاكم الله عنى وعن أخيكم خيراً ، قوموا لشأنكم وذرونى وشأنى يرحمكم الله »

وودّعنا وانصرفنا، ولا والله ما نجدُ لأسماء فى الرجال ضريباً، فأين فى النساء؟ ولكنها كانت تصبر صبر المهاجرين الأولين على الجهد والبلاء .

وما كان صُبح خامسة من مقتل ولدها حتى استجابت لدعوة ربها رضى الله عنها وأرضاها ، وهى أمٌّ حنّتْ تكتم حنينها، ولكأنه عجّل بها موته فقطع نياطها وصدع فؤادها، وفلق كبدها عليه حنينها إليه ....

محمود محمد شاكر

المعاهدة السرية

للأستاذ محمد عرفة



قبل هجرة محمد صلى الله عليه وسلم في الليلة الثانية عشرة من ليالي ذي الحجة بعد أن قضى الناس حجهم خرج جماعة من رحالهم المضروبة في وديان منى وضواحيها بعد أن مضى الثلث الأول من الليل ، خرجوا يتسللون تسلل القطا يمشون الهوينا ، فلا يسمع وقع خطاهم على الأرض أحد كأنما يخافون أن يشعر بهم الناس . خرجوا فرادى وجماعات ، وكلهم يقصد جهة معينة هي العقبة ، وكلما وصل إليها فوج منهم نزل بها حتى كملوا سبعين رجلاً

جلسوا يتناجون في صوت خفي ، لا يسمع إلا همسهم وتتابع أنفاسهم . جلسوا كأنما ينتظرون قادماً يقدم عليهم كانوا معه على ميعاد ...

وبينا هم كذلك إذا برجلين قد أقبلا يؤمانهم ، ويريدان مكانهم، فلما تبينوهما خفوا إليهما ، ونهضوا فسلموا عليهما. وكانت هذه الجماعة من سكان يثرب من الأوس والخزرج ، وكان هذان القادمان عليهم محمد بن عبد الله وعمه العباس بن عبد المطلب وكانا معهم على ميعاد

ليت شعري ما الذي حفز هذه الجماعة على أن تخرج من رحالها وتقصد هذا المكان القصي ؟ وما الذي حفز محمداً وعمه العباس أن يتركا منزليهما بمكة ويسيرا تحت ستار الليل والناس نيام ويوافياهم عند العقبة ؟ كان محمد يريد الهجرة إلى المدينة وكان يريد أن يعقد مع أهلها معاهدة سرية على أن يحموه ويعززوه وينصروه .

فلما جلسا وجلس الناس حولهما ، تكلم العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فقال : « يا معشر الأوس والخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا ، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده »

فلما انتهى العباس من كلامه قالوا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك وربك ما أحببت . فتكلم رسول الله، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فتقدم إليه البراء بن معرور وأخذ بيده وقال : والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أنفسنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب ، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر

فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان وقال: يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالاً ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنتم مني ، وأنا منكم ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم . فصرخ فيهم العباس ابن عبادة الأنصاري وقال : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال، إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم ؛ وإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك . فبسط يده فبايعوه

وبعد أن تمت المعاهدة قال لهم رسول الله : ارفضوا إلى رحالكم . فقال له العباس بن عبادة : والذى بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا ، فقال رسول الله : لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعوا إلى مضاجعهم . فلما أصبحوا غدت عليهم أكابر قريش ، فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا ، تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . وكان مع المسلمين الذين عقدوا المعاهدة قوم مشركون من المدينة لم يعلموا بما كان منها فانبعثوا إلى قريش يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء ، وما علمناه . ثم تفرق القوم ، ورجع الأنصار إلى المدينة ، وأقام رسول الله بقية شهر ذى الحجة من تلك السنة والمحرم وصفروهاجر إلى المدينة فى ربيع الأول

وكانت هذه المعاهدة السرية التى عقدها رسول الله بينه وبين أهل المدينة هى أول حادث أعز الإسلام وقواه ومكن له فى الأرض وكتب له البقاء والخلود ، فى هذا الوجود

لم يكن أهل المدينة حين عقدوا هذه المعاهدة مع رسول الله يجهلون ما وراءها ، فقد كانوا يعلمون أن وراءها حرب العرب جميعاً لأن العرب جميعاً على خلاف هذا الدين الجديد ، وهم لا محالة معارضوه ومحاربوه ، وقد ذكرهم بذلك العباس بن عبادة فلم يشفقوا من ذلك وأقدموا عليه وهم يعلمون ما يفعلون ، ويعنون ما يقولون

علموا ذلك كله فلم يهلهم ولم يفزعهم ، وأقدموا عليه طيبة به قلوبهم ، راضية به نفوسهم . لقد عرض رسول الله (ص) نفسه قبل ذلك على القبائل ، فأشفقوا منه ولم يقو أحد على حمل هذا العبء الثقيل .

لقد ذهب إلى ثقيف بالطائف وعرض عليهم الإسلام ، فامتنعوا وقال له أحدهم : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك . وقال آخر منهم : لا أكلمك كلمة أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك . فقام رسول الله من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيف ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، ثم نجاه الله منهم . وكان ينتظر أيام الحج فيذهب إلى الحجاج من العرب فى منازلهم ويعرض عليهم الإسلام فيأبون عليه ، ذهب إلى كندة فى منازلهم فامتنعوا عليه ، وأتى كلباً فامتنعوا عليه ، وأتى بنى حنيفة فردوه أقبح رد .

لم يقدروا على حمل هذه الأمانة ، وادخرها الله لهذا الحى من أهل المدينة فقد جاء نفر منهم إلى موسم الحج ، فلقيهم رسول الله فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج . قال : أفلا تجلسون حتى أكلمكم . قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فآمنوا به وصدقوه وقالوا له : قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله على يديك ، فلا رجل أعز منك . ثم رجعوا إلى المدينة ودعوا قومهم إلى الإسلام فأجاب منهم خلق كثير ، ثم جاء منهم قوم إلى مكة وقابلوا رسول الله ، وكانت المعاهدة التى ذكرناها .

إن هذه المعاهدة لتدل على ما للأنصار من جلد وقوة وشجاعة وبسالة وكرم وتضحية وإيثار

أباحوا أرضهم وديارهم وأرزاقهم لمن هاجر إليهم من المسلمين فقاسموهم ما عندهم ، وآثروهم على أنفسهم

فتحوا بها صدورهم لحراب العرب ورماحهم ، وقطعوا بها حبالهم التى كانت بينهم وبين العرب ، فما أعظم هذه التضحية ، وما أجل هذا الإيثار

وبحسبهم أن الله سجل لهم مفاخرهم ومكارمهم فى قوله :

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»

محمد عرفة

عبرة الهجرة

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن



قُمْ باسم ربّك فى الحياة مُجاهدا   وأعِدْ إلى العرب التُّراثَ الخالدا
مجدٌ بذلنا النفس فى تدعيمه   حتى استقرّ على الثُّريا قاعدا
أهوى إلى كسرى فدكّ صروحَه   ورمى هرقلَ فكان نَسْراً صائدا
فتح البلادَ مسالكاً ومعاقلاً   وأذالهن صوامعاً ومعابدا
ومشى إلى الرومان أنبلَ غايةً   وأعفّ فى يوم القتالِ مقاصدا
يدعو إلي دين النبى مناضلا   ويصد دعوى المشركين مجاهدا
ويكاد يفتتح القلوب بحجةٍ   غراء كالصبح المُبين شواهدا

* * *

هذا النبى من الجزيرة مقبلٌ   يبنى يقيناً أو يُقيم عقائدا
المسلمون ببطن مكة أسّسوا   للمجد ركناً والفخار قواعدا
رفعوا على التقوى قواعد ملكهم   ورَجوْا له فوق السماء مقاعدا
عَرَبٌ من الصحراء إلا أنهم   رفعوا لتمثال الحضَارةِ شاهدا
تلك الخيامُ الضارباتُ بمكةٍ   سخرتْ من (الإيوان) فخما صاعدا
قد لقّنته من العقيدة صافيا   وسقتْه ماء الحق عذباً باردا
حتى رأينا الفرُس أصبح دينهم   دينُ الحنيفة مشمخراً صاعدا
دخلوا إلى الإسلام أطوعَ أنفسا   لله وانقادوا أخفّ مقاودا

* * *

دين من الحقّ الصراح رأيتُه   يغزو الممالكَ فاتحاً ومجاهدا
لم يعبأ الأوثانَ وهى نواصب   شرَكاً ولم يخشَ الضلالَ الراقدا
ومضى فما سدّ القتالُ سبيله   وسعى فما هاب الفريقَ الحاشدا
يَهْدى ويفتحُ للعيون مسالكا   ويشقُّ فى سبب السماء مَصاعدا
ويكاد يهزأ بالعناد مكابرا   والكفرِ أحمقَ والضلالِ مُعاندا
نصبوا له الشَّرَكَ اللئيمَ فما ونى   ومضي يَحيك لصائديه مصايدا
ما كان صاحبُه إلى غاياته   نِكْسًا ولا داعيه شيخاً قاعدا
آذَوْهُ فاحتمل الأذاةَ مُصابرا   ورمَوهُ فاحتملَ الرُّماة مُجالدا
والحاسدون تنقصوه فما وهى   عزماً ولا بالى العدوّ الحاسدا
نفسٌ من الإيمان صيغ كيانها   وغدت على سر البطولة شاهدا
سَخِرَتْ بما صنع الضلالُ وأقبلت   تستلهم اللهَ الطريقَ الراشدا
وإذا النفوسُ تباعدت غاياتها   زادت عن الغرض اللئيم تباعدا

* * *

يأيها الداعى لكل كريمة   هذا سبيلُك قد أقامَ على هدى
أعليتَ باسم الله كل بنيّة   فيه وصيّرْتَ الكنيسَ مساجدا
ودعوتَ لا تخشى لدينك هازئاً   وصدَعت لا تخشى لرأيك ناقدا
وحملت من ظلم القريب مُعاكسا   ولقيتَ من عَنتِ الوليّ مُطاردا
فهجرتَ أهلك لا قلًى لودادهم   وتركتَهم لا ساخطاً أو واجدا..
لكن كرهتَ على المقام جحودهم   والحر يجتنب المقامَ الجاحدا

محمد عبد الغنى حسن

الحسن بن الهيثم

للأستاذ عبد الحميد حمدي
المدرس الأول للعلوم بوزارة المعارف



للحسن بن الهيثم منزلة رفيعة في عالم العلوم الفيزيقية لا ينتقص من قدرها أنه غير معروف في الشرق بقدر ما هو معروف في الغرب بين علماء الفيزيقا الذين قدروه فكتبوا عنه وترجموا مؤلفاته وعلقوا عليها وشرحوا الغامض منها .

وهو أبو علي الحسن بن الهيثم ، ولد بالبصرة عام ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) ومات بالقاهرة عام ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) وكان قد استقدمه الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي لينظم له مياه النيل لينتفع بها الزرع أوقات الزيادة والنقصان. وأمده الحاكم بالمال والرجال وقصد إلى أسوان وعاين النيل عندها ودرس مشروعاً كان قد أعده هو أثناء إقامته في العراق ليطبقه على حالة نيل مصر ، فرأى تعذر الأمر ورجع واعتذر إلى الخليفة بما تظاهر بقبوله ثم ولاه بعض الدواوين .

وقد ساهم الحسن بن الهيثم في الحركة العلمية في مصر إذ قام بالتدريس في الجامع الأزهر وتخرج عليه كثيرون من المصريين نذكر منهم أبا الوفاء المبشر بن فاتك من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائهم ، وقد أخذ عنه كثيراً من علوم الهيئة والعلوم الرياضية ، كما كانت لابن الهيثم مساجلات ومحاضرات ومراسلات قامت بينه وبين العلماء في مصر وفي غير مصر

وقد كان الحسن بن الهيثم أحد الأساتذة الذين تكونت منهم « دار الحكمة » وهي نوع من الأكاديمية العلمية أنشأها الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي وأمدها بآلاف الكتب وأغدق عليها الهبات واختصها بعنايته. وقد كان الحسن بن الهيثم زميلا في هذه الأكاديمية العلمية لابن يونس وعمار وعلي بن رضوان وما سويه الماريني، وكلهم من قادة الفكر في العالم الإسلامي في ذلك العصر، وكانوا من أصدقاء الحاكم وكانت لهم معه مجالس ومحاضرات

حضر الحسن بن الهيثم إلى القاهرة عام ٣٨٦ هـ (٩٦٦م .) وعاش فيها عيشة النسك والزهد، فقد كان في السنين الأخيرة من حياته يكتب في كل سنة اقليدس والمجسطي ويبيعهما ويقتات من ثمنهما ولم تزل هذه حاله إلى أن توفي عام ٤٣٠ هـ (١٠٣٨م) . فيكون قد قضى بالقاهرة حتى وفاته أكثر من اثنين وأربعين عاماً؛ فهو مواطن مصري انقضت على وفاته تسعة قرون كان فيها اسمه مغموراً غير مشهور لا تذكره المحافل العلمية الشرقية ولا تشيد بذكره؛ فمن الواجب علينا ومن الإنصاف له ونحن نحتفل بالسنة الهجرية الجديدة أن نحيي ذكراه في وقت نحن أحوج ما نكون إلى الإشادة بذكر السلف الصالح وإلى الكشف عن أعمالهم ومؤلفاتهم لتنشط الهمم ولنصل بين ماض تليد وحاضر مرتقب النتائج معقود عليه الرجاء أن يتفتح عن مستقبل حافل بالعلم والعرفان.

ويمتاز الحسن بن الهيثم في بحوثه الفيزيقية عن سواه من الفلاسفة الذين عاصروه أو تقدموه ممن كتبوا في العلوم الفيزيقية، فقد كان له منهج علمي اتبعه في بحوثه يتلخص في : المشاهدة والتجربة والاستنباط . وفي ذلك يقول جورج سارتون في كتابه « مقدمة لتاريخ العلوم » : وهو أعظم عالم فيزيقي مسلم وأحد كبار العلماء الذين بحثوا في البصريات في جميع العصور . وقد كان فوق ذلك فلكياً ورياضياً وطبيباً، وله شروح على مؤلفات أرسطو وجالينوس؛ والترجمة اللاتينية لكتابه « المناظر » وهو أهم مؤلفاته ــ كان لها أثر عظيم على العلم في الغرب وخصوصاً على روجر بيكون وكبلر وفيها يتجلى الرقي العظيم الذي وصلت إليه الطرق التجريبية » ويقول في ذلك أيضاً إيفور ب هارت في كتابه « الفيزيقيون العظام » :

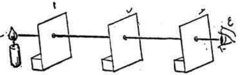
« وقد أدخل تحسيناً ذا شأن في جهاز بطليموس لقياس زوايا

الانكسار فى الأوساط المختلفة ، وقد كانت طرائقه فى الحقيقة تذكارات ماضية لطرائق البحث العلمى فى معاملنا فى الوقت الحاضر .

ونحن نعرض الآن لبعض أجهزة للحسن بن الهيثم استخدمها لإثبات بعض الظواهر الضوئية ، ونذكرها على سبيل المثال لا الحصر ، لأن تجارب ابن الهيثم التى تضمنها كتابه «المناظر» أكثر من أن تحصى . وسيكون بحثنا فى هذه الناحية التجريبية التى بز بها ابن الهيثم غيره من العلماء الفيزيقيين بحثاً مقارناً فنذكر تجاربنا الحديثة وأجهزتها ونقرنها بتجارب ابن الهيثم موضحة بالأجهزة التى استخدمها

أولاً : **الضوء ينتشر على سموت خطوط مستقيمة**

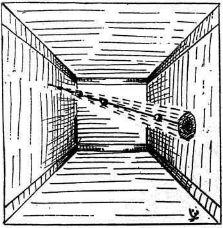
إذا وضعت جسما معتما بين عينيك ومنبع ضوء صغير يبعد بمسافة قصيرة فإنك لا ترى الضوء إذا كان الجسم والمنبع والعين على استقامة واحدة ؛ وإذا نظرت إلى شعاع ضوئى نافذ من ثلمة من نافذة حجرة مظلمة تشاهد مسير الشعاع داخل الحجرة فى خطوط مستقيمة . والحقيقة أن الضوء فى ذاته لا يرى ، ولكن الجسيمات الصغيرة المبعثرة فى الهواء هى التى تعكس الضوء إلى العين وتساعدها على تتبع مسيرها . وإذا راقبت مغرب الشمس عند ما تختفى تحت الأفق تشاهد أن الأشعة المنبثة منها تكون فى خطوط مستقيمة ؛ ويمكنك أن تثبت هذه الظاهرة عملياً بعدة تجارب نقتصر منها على ما يأتى :



(شكل ١ — ١)

خذ ثلاثة أفرخ من الورق القوى ا ، ب ، ج (شكل ١ ـ ١) واثقب كلا منها بثقب فى وسطه ، ثم ضعها رأسياً على حوامل ثلاثة بحيث تكون الثقوب على استقامة واحدة . أشعل شمعة (ش) وضعها أمام الثقب الأول ثم انظر من خلف الثقب الثالث عند (ع) تر الشمعة . أزح أحد الأفرخ فى أية جهة لا تر الشمعة . وهذا يدل على أن الضوء ينتشر فى خطوط مستقيمة فى الوسط المتجانس (الوسط هنا الهواء طبعاً)

وإليك شرح ابن الهيثم لهذه الظاهرة وتجربته التى أثبت بها صحتها :



(شكل ١ — ب)

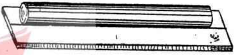
« . . . فأما كيف يكون نفوذ الضوء فى الأجسام المشفة فهو أن الضوء يمتد فى الأجسام المشفة على سموت خطوط مستقيمة ، ولا يمتد إلا على سموت الخطوط المستقيمة ، ويمتد من كل نقطة من الجسم المضىء على كل خط مستقيم يصح أن يمتد من تلك النقطة فى الجسم المشف المجاور للجسم المضىء . وهذا المعنى قد بيناه فى كتابنا « المناظر » بياناً مستقصى ، ولكنا نذكر الآن منه طرفاً يقنع فيما نحن بسبيله ، فنقول : إن امتداد الضوء على سموت خطوط مستقيمة يظهر ظهوراً بيناً من الأضواء التى تدخل من ثقوب إلى البيوت المظلمة ، فإن ضوء الشمس وضوء القمر وضوء النار إذا دخل فى ثقب مقتدر إلى بيت مظلم ، وكان فى البيت غبار أو أثير فى البيت غبار فإن الضوء الداخل من الثقب يظهر فى الغبار الممازج للهواء ظهوراً بيناً ، ويظهر على وجه الأرض أو على حائط البيت المقابل للثقب ويوجد الضوء ممتداً من الثقب إلى الأرض أو إلى الحائط المقابل للثقب على سموت مستقيمة » . وبعد هذا الشرح يدلى ابن الهيثم بالتجربة فيقول (شكل ا ـ ب) :

« وإن اعتبر هذا الضوء الظاهر بعود مستقيم وجد الضوء ممتداً على استقامة العود ، وإن لم يكن فى البيت غبار وظهر الضوء على الأرض أو على الحائط المقابل للثقب ، ثم جعل بين الضوء الظاهر وبين الثقب عود مستقيم ، أو مد بينهما خيط مداً شديداً ، ثم جعل

فيما بين الضوء والثقب جسم كثيف ظهر الضوء على ذلك الجسم الكثيف وبطل من الموضع الذي كان يظهر فيه ، ثم إن حرك الجسم الكثيف في المسافة الممتدة على استقامة العود وجد الضوء أبداً يظهر على الجسم الكثيف ، فيتبين من ذلك أن الضوء يمتد من الثقب إلى الموضع الذي يظهر فيه الضوء على سموت خطوط مستقيمة » .

ثانياً : ان البصر يرى المبصرات على سموت خطوط مستقيمة

في تجاربنا الحديثة لا توجد تجربة خاصة لإثبات هذه الظاهرة ولكنا نستنتجها من التجربة السابقة . أما الحسن بن الهيثم فيثبتها بتجربة مستقلة وبجهاز خاص ... وإليك شرح تجربته وجهازه (شكل ٢)



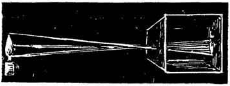
(ش — ٢)

« يتخذ المعتبر مسطرة في غاية الصحة والاستقامة ويخط في وسطها خطاً مستقيماً موازياً لخطي نهايتها ، ويتخذ أنبوباً اسطوانياً أجوف طوله في غاية الاستقامة واستدارته في غاية الصحة ودائرتا طرفيه متوازيتان ، ونهايته متشابهة ومقتدر السعة وليس بأوسع من محجر العين ، ويكون طوله أكثر من طول المسطرة بقدر يسير ويخط في سطحه الظاهر خطاً مستقيماً ويقسم الخط الذي على المسطرة ثلاثة أقسام أوسطها مساو لطول الأنبوب ويطبق خط الأنبوب على الأوسط من الأقسام الثلاثة بحيث يتطابق طرفاهما ويلصق الأنبوب بالمسطرة على هذا الوضع إلصاقاً ثابتاً ملتحماً

ثم يعين على مبصر من المبصرات ويلصق طرف المسطرة بالجفن الأسفل من إحدى عينيه والطرف الآخر بسطح المبصر ويغمض العين الأخرى وينظر من ثقب الأنبوب فإنه يرى من المبصر الجزء المقابل لثقب الأنبوب الذي يليه

وإذا ستر الثقب بجسم كثيف استتر ذلك الجزء فإذا رفعه عادت الرؤية ، وإن ستر بعض الثقب استتر من ذلك الجزء البعض المقابل لجزء الثقب المستتر الذي هو والبصر والساتر على خط مستقيم ، وإذا ستر الثقب استتر الجزء المقابل له

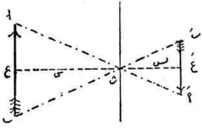
فمعلوم أن بين البصر وذلك الجزء هواء متصلاً لا يتخلله كثيف ومسافات لا نهاية لها ، كلها غير مستقيمة ؛ فلو كان ممكناً أن يدرك البصر شيئاً على غير استقامة في الهواء من غير انعكاس لكان يدرك الجزء في تلك الحال — فتبين أن هذه الرؤية لا تتهيأ إلا من سموت خطوط مستقيمة



(شكل ٣)

ثالثاً : الحجرة المظلمة Camera Obscura (شكل ٣)

إذا أغلقت جميع نوافذ حجرة وتركت ثلمة صغيرة فيها ووضعت خلفها حاجزاً كلوح من الخشب شاهدت تكون صورة عليه للمرئيات التي خارج الحجرة وهذه تكون مقلوبة ويمكن إثبات ذلك عملياً (شكل ٤) فإنك إذا ثبتت لوحاً رقيقاً من المعدن عند «ث» وثبته على حامل ووضعت شمعة موقدة «ا ب» أمامه



(شكل ٤)

وحائلاً من الورق الأبيض خلفه تتكون على الحائل صورة مقلوبة للهب الشمعة هو (ا ب) ويعلل ذلك بأن الأشعة تتفرق في جميع الجهات من كل نقطة من نقط الجسم المضيء ، ومن هذه الأشعة تنفذ حزمة صغيرة للغاية من الثقب فيخرج من (ا) شعاع ينفذ من الثقب ويسقط على الحائل فتتكون عليه صورة (ا) لهذه النقطة وكذلك يخرج من (ب) شعاع ينفذ من الثقب ويلاقي الحائل في (بَ) تكون هي صورة النقطة (ب) وبالمثل تتكون

على الحائل بين (ا ، ب) ، صورة لجميع نقط اللهب الأخرى بين (ا ، ب)، وإذا كان الثقب ضيقاً كانت الصورة واضحة ومحدودة ، وإذا كان الثقب متسعاً كانت الصورة غير واضحة وغير محدودة.

ويرجع انقلاب الصورة إلى انتشار الأشعة الضوئية فى خطوط مستقيمة وتقاطعها عند الثلمة ، فالأشعة الآتية من الأجزاء العليا تقابل الحائل فى أجزائه السفلى، وبالعكس الآتية من الأجزاء السفلى تلاقى الحائل فى أجزائه العليا والأشعة الآتية من الأجزاء التيامنة تقابل الحائل فى أجزائه المتياسرة ، وبالعكس الآتية من الأجزاء المتياسرة تلاقى الحائل فى أجزائه المتيامنة فتكون الصورة مقلوبة من عامة الوجوه ، وإليك قول ابن الهيثم فى هذه الظاهرة :

« ... وبعد ذلك نقول : كل صورة مضيئة قابلت ثقباً مستديراً فى غاية الصغر فإن المخروط المتشكل بينها وبين مركز الثقب ينفذ إلى السطح الموازى ويحدث ضوؤها على السطح على شكل شبيه بشكل الصورة، لكنه يكون معكوساً، ولنسمه الضوء المتوسط، فإذا تعددت الصور المضيئة تعددت أضواؤها المتوسطة لكن الضوء الحادث من الصورة التيامنة عن الثقب يتياسر ، ويتيامن ضوء المتياسرة ، ويتعالى ضوء المتسافلة، ويتسافل ضوء المتعالية

وأشكال الأضواء تشبه أشكال الصور ونسبتها إلى أشكال الصور واحدة، وضوء كل صورة يرد فى جميع المخروطات المتشكلة بينها وبين كل نقطة من سطح الثقب إلى ما يقابله ، وقواعد تلك المخروطات على السطح المقابل متساوية

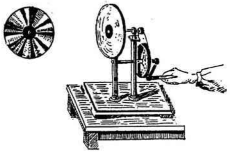
... فإن كان الثقب فى غاية الصغر فإن شكل الضوء الحادث يكون قريب الشبه بشكل الضوء المتوسط، ويقل الشبه بقدر زيادة فسحة الثقب ... وهكذا إلى أن يخفى الشبه ويبقى الشبه فى مجرد الضوء واللون ... وكلما كان الثقب أضيق والسطح أبعد كان شكل الوسط أشبه بالصورة

وكذلك أيضاً إذا قابلت قطع سحاب بيض ثقباً ضيقاً يفضى إلى موضع نقى اللون لا يصل إليه ضوء آخر فإنه يرى فى ذلك الموضع قطع أضواء إلى البياض بعدد قطع السحاب مخالفة الأوضاع لها، وإن كانت قطع السحاب تتحرك نحو جهة فإن الأضواء أيضاً تتحرك لكن إلى خلاف تلك الجهة

وكذا لو طار بعض الكبار من الطيور قريباً من ثقب كما ذكر فإن صورة لونه تظهر على ما يقابل الثقب متشكلا بشكل يشبه شكله متحركا فى خلاف جهته

رابعاً : دوامة[1] الحسن بن الهيثم وقرص نيوتن

يمكث التأثير الذى يحدثه أحد الألوان على شبكية العين برهة من الزمن صغيرة ١/١٠ ثانية فإذا تتابعت عدة تأثيرات من ألوان مختلفة فى زمن أقل من ١/١٠ ثانية لا يضيع أثر أى لون من هذه الألوان بل تتأثر العين بها جميعاً فى وقت واحد وتحس العين بلون خاص هو نتيجة اندماج تأثيرات الألوان المختلفة . ويمكن إثبات هذه الظاهرة باستخدام قرص نيوتن (شكل ٥ ـ ١) وهو قرص مستدير من الورق المقوى مقسم سطحه إلى قطاعات ملونة تختلف مساحتها وترتيبها حسب وضعها الطبيعى فى الطيف الشمسى ويثبت القرص عند مركزه على محور عمودى على مستواه ، فإذا أدير القرص بسرعة تكفى لسقوط الألوان كلها على العين فى فترة تقل عن ١/١٠ ثانية اندمجت التأثيرات من الألوان المختلفة على العين وظهر القرص أبيض قليلاً . وإذا كانت ألوان الأقسام ليست فى ترتيب وضعها فى الطيف الشمسى ولم يراع مساحتها فيه أحست العين بلون مركب من ألوان القرص كلها



(شكل ٥ — ١)

وإليك شرح ابن الهيثم لنظرية تركيب الألوان ووصف دوامته (شكل ٥ ـ ب)

نقول إن إدراك ماهية اللون ليس يكون إلا فى زمان وذلك

(١) الدوامة هى لعبة للأطفال يلفون عليها سيراً أو خيطاً ويلقونها على الأرض فتدور ، وهى باللغة العامية النحلة

لأن إدراكها ليس إلا بالتميز والتشبيه وذلك لا يتأتى إلا فى زمان والذى يدل على ذلك ما يظهر من الدوامة عند حركتها فإن الدوامة إذا كانت فيها أصباغ مختلفة وكانت الأصباغ خطوطاً ممتدة من وسط سطحها الظاهر وما يلى عنقها إلى نهاية محيطها ثم أديرت الدوامة بحركة شديدة فإنها تتحرك على الاستدارة فى غاية السرعة



شكل (٥ ب)

« وإذا تأملها الناظر فى حال حركتها فإنه يدرك لوناً واحداً مخالفاً لجميع الألوان التى فيها كأنه لون مركب من جميع ألوان تلك الخطوط ولا يدرك تخطيطها ولا اختلاف ألوانها

ويدركها مع ذلك كأنها ساكنة إذا كانت حركتها فى غاية السرعة ، وإذا كانت فى حركتها فلا تثبت نقطة منها فى موضع واحد زماناً محسوساً وهى تقطع فى أقل القليل من الزمان جميع الدائرة التى تدور عليها فتحصل صورة النقطة فى ذلك الزمان اليسير على محيط دائرة من جميع محيطها الذى يحصل فى البصر فيدرك لون تلك النقطة فى الزمان القليل مستديراً

« وكذلك حكم جميع النقاط التى فى سطح الدوامة وجميع النقاط المتساوية الأبعاد عن المركز تتحرك حينئذ على محيط دائرة واحدة فيعرض لذلك أن يظهر لون كل نقطة من النقاط المتساوية الأبعاد عن المركز على محيط دائرة فتظهر ألوان جميع تلك النقاط فى جميع محيط الدائرة ممتزجة ولا تتميز للبصر فلذلك يدرك سطح الدوامة لوناً واحداً ممتزجاً من جميع الألوان التى فى سطحها »

وبعد فهذه تجارب وأجهزة نسوقها على سبيل التمثيل لا الحصر فهى قليل من كثير؛ ولعلنا نكون قد وفقنا إلى الكشف عن ناحية عظيمة — هى البحث العلمى التجريبى — امتاز بها الحسن بن الهيثم فى بحوثه فكان لها أكبر الأثر فى قيادة البحث العلمى فى أوربا فى العصور القديمة ولا يزال أثرها محسوساً فى عصرنا الحالى .

عبد الحميد حمدى مرسى

صفحة مطوية من تراث العرب العلمى

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

لا أظن أن عالماً أصابه الإهمال كالخازن . ولا أظن أن الإجحاف الذى لحق بمآثره لحق بغيره من نوابغ العرب وعباقرتهم؛ فلقد أدى ذلك الإهمال وهذا الإجحاف إلى الخلط بينه وبين علماء آخرين فنسبت آثاره لغيره كما نسبت آثار غيره له . وقد وقع فى هذا الخلط بعض علماء الغرب وكثير من علمائنا ومؤرخينا . قال (درابر) الأميركى إن الخازن هو الحسن بن الهيثم وإن ما ينسب إلى ما يُسمى (بالخازن) هو على الأرجح من نتاج ابن الهيثم . وخلط الأستاذ منصور حنا جرداق أستاذ الرياضيات العالية بجامعة بيروت الأميركية فى محاضرته عن مآثر العرب فى الرياضيات والفلك بين الخازن وابن الهيثم، يتجلى ذلك فى قوله : « ومن أشهر المشتغلين بالفلك والطبيعيات فى الأندلس أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازنى الأندلسى الذى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد وأوائل القرن الثانى عشر للميلاد ، وألف مؤلفاته الشهيرة فى النور وآلات الرصد وأوضح مقدار الانكسار . وألف فى الفجر والشفق وعين ابتداء كل منها وقت بلوغ الشمس ١٩٠ درجة تحت الأفق ... الخ »

ونحن هنا أمام خطأين : الأول فى اعتبار الخازن من الأندلس وهو فى الحقيقة من مرو من أعمال خراسان .

والثانى فى أن المآثر التى أوردها الأستاذ ليست للخازن بل هى من نتاج ابن الهيثم . وأكبر الظن أن ما وقع فيه الأساتذة والعلماء من أخطاء يعود إلى الوضع الإفرنجى للاسمين فأكثر الكتب الإفرنجية حين تكتب الحسن بن الهيثم تكتبه (Al-Hazin) وحين تكتب الخازن تكتبه (Al-Khazin) فظن كثيرون أن هذين الاسمين هما لشخص واحد ولم يدققوا فى حروفهما مما أدى إلى التباس الأمر عليهم ووقوعهم فى الخلط والخطأ .

وسنحاول فى هذا المقال أن نبين مآثر الخازن فى علم الطبيعة (Physics) وأثره فى بعض بحوثها جاعلين نصب أعيننا إنصاف

عالم هو من مفاخر الأمة العربية ومن كبار عباقرتها من الذين عملوا على إنماء شجرة المعرفة وساهموا فى خدمتها ورعايتها

والخازن من علماء النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلاد وهو أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازنى المعروف بالخازن نشأ فى (مرو) أشهر مدن خراسان، وقد درس فيها وعلى علمائها نبغ ولمع فى سماء البحث والابتكار . اشتغل فى الطبيعة ولا سيما فى بحوث الميكانيكا فبلغ الذروة وأتى بما لم يأت به غيره من الذين سبقوه من علماء اليونان والعرب ، كما وفق فى عمل زيج فلكى سماه (الزيج المعتبر السنجارى) وفيه حسب مواقع النجوم لعام ١١١٥ — ١١١٦م ، وجمع أرصاداً أخرى هى فى غاية الدقة بقيت مرجعاً للفلكيين مدة طويلة .

ومن الغريب أن قنصل روسيا فى تبرز فى منتصف القرن الماضى عثر صدفة على كتاب ميزان الحكمة ، وقد كتب عنه عدة مقالات فى إحدى المجلات الأميركية . ولعل العلماء الألمان أكثر العلماء اعتناء بآثار الخازن . فنجد فى رسائل للأستاذ ويدمان Wiedman فصولاً مترجمة عن (ميزان الحكمة) وقد استوفت بعض حقها من البحث والتعليق كما نجد فى رسائل غيره مقتطفات من محتويات الكتاب المذكور دللوا فيها على فضل الخازن فى علم الطبيعة .

ولا بد لى فى هذا المجال من إبداء دهشتى لعدم نشر فصول هذا الكتاب النفيس فى كتاب خاص ، ولا أدرى سبباً لهذا ...

ولعل السؤال الآتى يتبادر إلى غيرى أيضاً : لماذا نُشرت بعض محتويات الكتاب وأهملت الأخرى ؟ ليس لى أن ألوم علماء الألمان أو غيرهم فى ذلك ، فلقد قاموا بواجبهم نحو الخازن أكثر منا وعرفوا فضله قبلنا ، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنه لولا قنصل روسيا N. Khanikoff وبعض المنصفين من مستشرقى الألمان وعلمائهم لما عرفنا شيئاً عن الخازن ، ولما كان بالإمكان نشر هذا المقال . وقد يكون الأستاذ مصطفى نظيف بك أول عربى أشار إلى بعض محتويات كتاب ميزان الحكمة فى كتابه : (علم الطبيعة تقدمه ورقيه ...) ، ولكنه لا يذكر شيئاً عن المؤلف بل ولا يذكر أنه الخازن ، ويقول: « ... والكتاب لا يعلم مؤلفه ... » ثم يردف هذا القول : إن (درابر) يرجح أنه من تأليف الحسن ابن الهيثم . وأظن أن مقالنا هذا أول مقال يظهر فى مجلة عربية يبحث عن الخازن ويزيح الستار عن آثاره ويفيه بعض حقه . والذى أرجوه أن يثير هذا المقال أساتذة كلية العلوم فى جامعة فؤاد الأول بمصر وعلى رأسهم حضرة صاحب العزة الدكتور على مصطفى مشرفة بك فيعملون على إنصاف الخازن وعلى نشر مآثره بين المتعلمين والمثقفين ، فهم أولى الناس بذلك ، وأحق من غيرهم بالقيام بهذا العمل الجليل . ولنا من حماستهم للتراث العربى والإسلامى ما يدفعنا إلى لفت أنظارهم إلى حياة الخازن الحافلة المليئة بالإنتاج التى أحاطها الإهمال من كل جانب .

وضع الخازن كتاباً فى الميكانيكا سماه (كتاب ميزان الحكمة) هو الأول من نوعه بين الكتب القديمة العلمية القيمة ، وقد يكون هو الكتاب الوحيد المعروف الذى يحتوى على بحوث مبتكرة جليلة لها أعظم الأثر فى تقدم الأيدروستاتيكا ، وقد قال عنه الدكتور سارطون Sarton إنه من أجل الكتب التى تبحث فى هذه الموضوعات وأروع ما أنتجته القريحة فى القرون الوسطى . والذى يطلع على بعض مواد هذا الكتاب تتجلى له عبقرية الخازن وبدائع ثمرات التفكير الإسلامى والعربى . واعترف (بلتن) فى أكاديمية العلوم الأميركية بما لهذا الكتاب من الشأن فى تاريخ الطبيعة وتقدم الفكر عند العرب

لا يجهل طلاب الطبيعة أن (توريشيللى) بحث فى وزن الهواء وكثافته والضغط الذى يحدثه . وقد مر على بعضهم فى تاريخ الطبيعة أن (توريشيللى) المذكور لم يسبق فى ذلك وأنه أول من لفت النظر إلى مثل هذه الموضوعات وبحث فيها وأشار إلى أهميتها

والواقع غير هذا ، فلقد ثبت من كتاب (ميزان الحكمة) أن من بين المواد التى تناولها البحث مادة الهواء ووزنه . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أشار إلى أن للهواء قوة رافعة كالسوائل وأن وزن الجسم المغمور فى الهواء ينقص عن وزنه الحقيقى وأن مقدار ما ينقصه من الوزن يتبع كثافة الهواء

وبيّن الخازن أيضاً أن قاعدة (أرشميدس) لا تسرى فقط على السوائل بل تسرى على الغازات ، وأبدع فى البحث فى مقدار ما يُغمر من الأجسام الطافية فى السوائل . ولا شك أن هذه البحوث هى من الأسس الذى عليها بنى علماء أوربا فيما بعد بعض

الاختراعات الهامة كالبارومترومفرغات الهواء والمضخات المستعملة لرفع المياه

ولسنا هنا ننتقص من قدر توريشيللى وباسكال وبويل وغيرهم من العلماء الذين تقدموا بعلم « الإيدروستاتيكا » خطى واسعة ، ولكن ما نريد إقراره هو أن الخازن قد ساهم فى وضع بعض مباحث علم الطبيعة وأن له فضلاً فى هذا كما لغيره من الذين أتوا بعده، وقد توسعوا فى هذه الأسس ووضعوها فى شكل يمكن معه استغلالها والاستفادة منها

وبحث الخازن فى الكثافة وكيفية إيجادها للأجسام الصلبة والسائلة واعتمد فى ذلك على كتابات البيرونى وتجاربه فيها وعلى آلات متعددة وموازين مختلفة استعملها لهذا الغرض . واخترع الخازن ميزاناً لوزن الأجسام فى الهواء والماء وكان لهذا الميزان خمس كفات تتحرك إحداها على ذراع مدرّج . ويقول بلتن إن الخازن استعمل الأريومتر (Areometer) لقياس الكثافات وتقدير حرارة السوائل . ومن الغريب أن تجد أن الكثافات لكثير من العناصر والمركبات التى أوردها فى كتابه بلغت درجة عظيمة من الدقة لم يصلها علماء القرن الثامن عشر للميلاد .

وفى الكتاب أيضاً شئ عن الجاذبية ، وأن الأجسام تتجه فى سقوطها إلى الأرض ، وقال إن ذلك ناتج عن قوة تجذب هذه الأجسام فى اتجاه مركز الأرض . ويرى أن اختلاف قوة الجذب يتبع المسافة بين الجسم الساقط وهذا المركز . وجاء فى كتاب (علم الطبيعة — تقدمه ورقيه ...) للأستاذ نظيف : « ... ومما يثير الدهشة أن مؤلف كتاب ميزان الحكمة كان يعلم العلاقة الصحيحة بين السرعة التى يسقط بها الجسم نحو سطح الأرض والبعد الذى يقطعه والزمن الذى يستغرقه — وهى العلاقة التى تنص عليها القوانين والمعادلات التى ينسب الكشف عنها إلى غاليلى فى القرن السابع عشر للميلاد .. » . وعلى الرغم من التحريات العديدة لم أتمكن من العثور على المقتطفات التى تنص على العلاقة بين السرعة والبعد والزمن فى المصادر التى بين يدى سواء العربية منها أو الإفرنجية . ولهذا فمن الصعب جداً أن أحكم فى صحة ما جاء عن الخازن بشأن هذه العلاقة . وأظن أن العلاقة التى عرفها الخازن والتى وردت فى كتابه — وهى العلاقة بين السرعة التى يسقط بها الجسم نحو الأرض والبعد الذى يقطعه والزمن الذى يستغرقه لم تكن صحيحة ودقيقة بالدرجة التى تنص عليها معادلات غاليلى ، ولكنها قد تكون صحيحة إلى درجة ودقيقة إلى حدّ . وآمل فى أول فرصة أزور فيها مصر أن أبحث عن هذه النقطة فى مكتبات القاهرة فقد أجد فيها ما يلقى ضوءاً على المدى الذى توصل إليه الخازن فى الجاذبية

وأجاد فى بحوث مراكز الأثقال وفى شرح بعض الآلات البسيطة وكيفية الانتفاع منها، وقد أحاط بدقائق المبادئ التى عليها يقوم اتزان الميزان والقبان واستقرار الاتزان إحاطة مكنته من اختراع ميزان من نوع غريب لوزن الأجسام فى الهواء والماء كما مرّ بنا

هذا ما استطعنا الوقوف عليه من مآثر الخازن بعد الرجوع إلى مصادر عديدة ، ونرجو أن يكون هذا المقال حافزاً لغيرنا للاعتناء بتراث هذا العالم العربى الذى ترك ثروة علمية ثمينة للأجيال ، كما نأمل أن يدفع بعض المنصفين من الباحثين والمؤرخين إلى الاهتمام برفع الإجحاف الذى أصابه ، والعمل على إزالة الغيوم المحيطة بنواح أخرى من ثمرات قريحته الخصبة المنتجة

« نابلس » قدرى حافظ طوقان

درس للزعماء في سيرة زعيم

للأستاذ سعيد الأفغاني

في حياة خالد بن الوليد الحافلة بالبطولة والرجولة ، درس للصغير والكبير ؛ غير أن ما يحيط بنهضة العرب اليوم من تناحر على الغنائم ، والمعركة لما تنته بعد ، يحتم أن نعرض لعبرتين في سيرة الفاتح العظيم ، فيهما درس بليغ ، ينتفع به من في قلبه حبة خردل من إخلاص . وكذلك التاريخ أيها القارئ يسعفك كلما كلب الزمان وحرب العدو ، ولن تعدم منه أبداً سراجاً يضيء حاضرك ويبصرك بالسبل وينجح لك المساعي ، ويريك بم كان تقدم المتقدمين وفوز الفائزين ، وبم كان التأخر والذلة والخسران

***

أما الأولى من العبرتين ، فهي أن خالداً من أبطال قريش وصناديدهم ، بل هو البطل فيهم لا يعدله غيره . أظفر الله المسلمين بالمشركين يوم بدر ، فكان عليهم عار الأبد ، وأصبحوا بهزيمتهم سبة بين العرب ؛ فما قر لهم قرار ، حتى تألبت جموعهم في أحد ، متعطشة إلى الثأر ، ثم تقع الواقعة فينهزمون أيضاً . ويريد ربك أن يصاب المسلمون بعد نصرهم ، لتكون لهم الهزيمة بعد الظفر درس الأبد ، فلا يخالفون رئيساً بعدها أبداً . ثم لا يفطن إلى خلو الجبل من الرماة إلا خالد اليقظ ، فيحيط بالمسلمين – وهم لاهون بالغنائم – من خلفهم ، وينتعش المشركون حينئذ ، وتكون المصيبة في المسلمين بالغة ؛ فكانت هزيمتهم ، وكانت الفرحة الكبرى لقريش أن ثأروا لقتلاهم يوم بدر ، ورفعوا عن أنفسهم العار ، وكان أن ذهب بفخر هذا اليوم كله خالد .

هذا القائد الباسل الذي طارت شهرته في أهل الشرك والتوحيد على السواء ، وقع في قلبه أن الإسلام حق ، فرمى بالقيادة والشهرة جانباً ، ووطن نفسه على الأذى يناله من قريش ، الذين سيحنقون أشد الحنق ، وقصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقبله مسلماً في المسلمين ، وقد سأله في طريقه عمرو بن العاص : « إلى أين يا أبا سليمان ؟ » فقال : « والله قد استقام الميسم ، وإن الرجل لنبي ، أذهب والله فأسلم ؛ فحتى متى ؟! »

ألا يجد رؤساء الناس وزعماؤهم في هذه عبرة ودرساً ، ألا يدعون نصرة أهوائهم وإرضاء نفوسهم ، ليقبلوا على أمر تبين رشده فيتبعونه؟ إن الناس لينظرون إليهم ، وإن الله لسائلهم عن الوطن والدين يتجرون بهما ، وعن العامة يلعبون بعقولهم ، وقد أعطوا الله موثقاً : ليكونن مع الحق حيث كان ، وليقومن بنصرته وحده لا نصرة نفوسهم ونزغاتهم . جمعهم وطن واحد فراموه أجزاء وأشلاء ، واستعدوا الأجنبي المتربص بهم ليحفظ عليهم رياساتهم الواهية ، فنال هذا فريسته بسلاحها ، وكانت هذه الأثرة الدنيئة أفتك بالبلد من كل غارة . ثم انتظم أمورهم دين واحد فأبوه إلا شيعاً وفرقاً وطرقاً ، فبادر الأجنبي يعلن حمايته لكل فرقة على حدة ويعترف باستقلالها عن أختها ، ويبالغ في تشجيعه على التفرق ، وفي تفكيكه عرى الطائفة الواحدة حتى عم البلاء وطم . وها نحن أولاء نرى في قطر عربي صغير كسورية ، نبتاً حافلاً بأسماء طوائف لو وزعت على أهل الأرض ما نجت من شر فتنتها بقعة ، وفي كل يوم فرقة جديدة وحماية سريعة [1]

إن خالد بن الوليد طوح بالقيادة والفخر والظفر والمجد وأقبل على النبي واحداً من المسلمين ، ونحن لا نكلف هؤلاء السادة طرح شيء فستبقى عليهم زعاماتهم ، وسيرجعون أعز ما كانوا إن جندوا أنفسهم في خدمة الحق والخير

(١) لم يكن يوم الاحتلال الفرنسي للشام من الطوائف غير المسلمين والمسيحيين واليهود ، فما زالوا ينبشون من الفروق الضئيلة وينفخون فيها حتى صار المسلمون بفضلهم طرائق قدداً ، فهم اليوم سنية وشيعة وعلوية وجعفرية وإسماعيلية و ... وجعلوا لكل مفتياً وقاضياً ومحكمة ونواباً وعدداً من الوظائف ... وحتى مدوا أيديهم إلى ما يسمى بالطرق فربطوها بشخص المفوض السامي بقرارات صدرت بما يشبه السر ، وما راع الناس إلا محام في محكمة منذ شهور يستند إلى قرار المفوض السامي بقوله في دعوى للأوقاف الاسلامية على شيخ مولوية : « إن الطائفة المولوية لا علاقة لها بالأوقاف الاسلامية ولا بالمسلمين وإن ... » فعرفنا ما حيك لنا بعد أن أطبق الفخ علينا . ومنذ عهد قريب صدر قرار للمفوض الفرنسي زعم أنه ينظم الأحوال الشخصية ، فلم يبق حرمة للشريعة الاسلامية إلا أباح انتهاكها ولا صاحب نزوة أو إباحية أو إلحاد إلا شجعه ليجهر بنزوته ويدعو إليها وينفصل بها طائفة محترمة معترفاً بها محمية بجيش الاحتلال . وفي القانون هذا عند الإيجاب ما يجعل في الغد كلا من الشافعية والمالكية والحنفية طائفة مستقلة . ولا ندري أين يستقر نبأ تلك الهاوية ... هذا إلى طغيان من المبشرين بثها بكثرة في هذه الأيام في أصقاع يسودها الجهل المطبق ، ويعم أهلها فقر مدقع آلوا إليه بعد غنى وافرابتز منهم في سنوات خلت ، ومنح هؤلاء المبشرون سلطة لا حد لها ، وما ندري كم يصمد الجهل والفقر والهوان أمام العلم والسلطان والمسلمون في نومهم يغطون ...

وأما العبرة الثانية التي يجدها الزعماء في سيرة خالد ، فغاية في إنكار النفس وبذل الروح وإماتة الهوى

أسلم خالد وأبلى البلاء الحسن في كل غزواته مع النبي ، ثم في حربه المرتدين ، وتوطيده دعائم الوحدة في الجزيرة ، ثم في سيره إلى العراق ، وانتصاره على الفرس الانتصارات الآخذ بعضها بحجز بعض ؛ فمن قهر جيوش ، إلى دك عروش ، إلى فتح حصون ، إلى خطف قواد ، إلى قتل أبطال ... مآثر لو طلب بهن الخلافة لما ساغ في العقل أن يختلف عليه فيها اثنان . ثم يبعثه أبو بكر مدداً إلى الشام ثم يكون يوم اليرموك ، وقد بلغ الروم في التعبئة غاية كيدهم وفيهم : عـدد كثير ، وشجاعة فائقة ، واستبسال واستماتة ، حتى لقد سلسل رجال منهم أنفسهم للموت بسلاسل من حديد ، وقيد آخرون أنفسهم لئلا يفروا ، ثم يكون رأي خالد توحيد العمل معلناً في خطبته البليغة المشهورة ، ثم جولات منه صادقات ، فإذا بالعدد الضخم من الروم يهوى إلى الواقوصة كالبناء المتداعي، ثم يتصل الظفر حتى يكون يوم دمشق، وقد ولي الخلافة عمر ، ووصل بريده يعهد إلى أبي عبيدة بالقيادة ، ويجعل خالداً جندياً من الجنود ؛ وهنا العبرة ، وهنا يبدأ الدرس :

في هذا الموقف يختلف خالد وزعماء اليوم ، أما زعماء اليوم — من أمتنا طبعاً — فدستورهم الكلمة المشهورة التي نجمت في مصر على ألسنة بعض الناس : « الحماية على يد فلان ، ولا الاستقلال على يد فلان » ، فلو كانوا مكان خالد لانشقوا بجند عظيم وحاربوا أبا عبيدة ومن معه ، ثم ظفر الروم بالفريقين معاً وارتدت الدعوة العربيـة إلى الحجاز ، ثم لا يُدرى أيكتفون أم ينبتون الجزيرة كلها خلافاً وتناحراً . وأما خالد داء الجيوش وقاهر الروم والفرس معاً ، فقد كان رجلاً فوق هذا : انضوى إلى لواء أبي عبيدة وأخلص النصح والعمل ، ولم يُر أحد أكثر جهداً وانكماشاً وبلاء منه يومئذ أمام أسوار دمشق . لم ينم عن العدو ساعة قط ، ولا فاته من حركاته صغيرة ولا كبيرة ، فهو أبداً مقدم منطلق ، وهو إلى ذلك يقلب وجوه الحيلة ، ويعمل الفكرة كأنه لم يزل هو القائد ، حتى هداه النظر إلى نصب السلالم على السور ، فالتمس غفلة الحامية في يوم عيد فصعد عليها وطائفة من خيرة الشجعان فواثبوا الحراس ونزلوا إلى الباب فقطعوا أغلاقه بسيوفهم . وقد فتح المسلمون دمشق بحنكته ويقظته واقتحامه وحده لا شريك له في ذلك ، ولم يبال أن يكون فخر هذا الفتح لأبي عبيدة أو لغيره ، فما عمل خالد لزعامة ولا شهرة ، عمل لله وحده وقد رضي الله عنه وأرضى الناس. وأولئك قوم نزع الله ما في صدورهم من غل إخواناً

هذا بدء تاريخنا ، أما النهاية التي ختمناه بها نحن : فسلسلة من التفريط وتضييع الفرص ، وعبادة النفس والاندفاع مع الأهواء . في سبيل ذلك ضحى المتزعمون بخير البلاد خيراً بعد خير . لنرجع عشرين عاماً إلى الوراء فلننظر : كم مرة خسرنا مراحل في تقدم القضية لأن الحلول لم تكن على يدنا ولا باسمنا ؟ وكم مرة غششنا الناس وجهدنا أن نريهم كل حسنة ظفر بها غيرنا سيئة شنعاء ؛ وكل شر لبسناه عليهم سعادة الأبد ؟

فتجحنا — لأمر يريده الله — وقال الناس لصاحب الخير : « أنت شرير لا يصدر عنك خير ، الخير كله في حزب كذا ، وقف عليهم دون خلق الله أجمعين ... »

كان هـذا في الشام وكان مثـله في كل قطر عربي ، وهو ما نرى أشباهه في جميع مرافقنا ، حيث كان تناحرنا ، وتكالبنا وبالاً علينا جميعاً . نعم ، هذا ما بلينا به في كل النواحي ، في السياسة والإدارة ، والحكم والدين و...الخ

حصرنا في أنفسنا الإخلاص وخدمة البلاد ، لنتمتع بعرض زائل ، وكتب الله علينا إثم كل مصيبة نزلت بالأمة من جراء أثرتنا وتدجيلنا ، ونحن وأولئك جميعاً ، لا نبلغ بعـد ذلك كله ، أن نكون غباراً على قدم أصغر جندي من جنود خالد .

* * *

« طلبت القتل في مظانه ، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد لا إله إلا الله ، من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين ، بتها وأنا مترس ، والسماء تهل عليّ ، وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار ، فعليكم بالجهاد ...

لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشي

حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء ...

إذا أنا مت فانظروا فى سلاحى وفرسى ، فاجعلوه فى سبيل الله »

هذه حسرة الفاتح الكبير ، الذى لم يفارق النصر موكبه ساعة قط . هذه كلمات الذى ساق السعادة إلى بلدين كبيرين : العراق والشام ، تفيض باللوعة والأسى ، فتثير الإجلال والحزن من أقصى مكامنهما فى النفوس .

يتلهف أبو سليمان وهو يحتضر — وكل جسده إما مطعون أو مضروب أو مرمى — على أن لم يقض بين الصفين ، أو أمام الحصون ، أو فى الثغور ، جندياً يتخبط بدمه الشاخب ، فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ظامئاً مُجهداً مُشعثاً ، يرسل من فيه شهادة الحق مع آخر نفس يخرج من صدره الحنون :

رحمك الله يا أبا سليمان ! وليس بيدك ما تمنيت ، فالله وحده يتوفى ويختار ، وما عليك ألا تموت فى الساحة بين الصفين ، فما كنت لحظة من اللحاظ لتفتر عن جهاد ، أو تعبئة لجهاد ، أو حديث نفسى بجهاد . ما كنت يا ابن الوليد إلا جهاداً متلاحقاً فى سبيل الواجب . لقد أرضيت ربك فجعلك سيفه فى الأرض ، وأرضيت رسوله محمد فأمرك ورضى عنك ، وأرضيت خليفته حتى قال : « ما على نساء قريش أن ينشئن مثل خالد » ! وعمر نفسه حين لامك لم يترك إكبارك ، ولما نزل الشام ورأى معجزاتك فى الفتوح لم يملك أن قال : « أمّر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم منى بالرجال » .

لقد كنت أمة فى رجل ، فعليك الرحمة من هؤلاء جميعاً ، من كل من حارب تحت لوائك . وعليك الرحمة من النساء والصبيان والرهبان والفلاحين والمستضعفين الذين لم تكن تفتأ توصى جندك المنصور برعايتهم ، والكف عنهم ، والرأفة بهم . وعليك الرحمة من كل نسمة خلصتها من قسوة الفرس ، أو ظلم الرومان .

وليس لنا أن نقول بعد تزكية الله ورسوله وخليفته ، فما رأت جيوش الرحمة والهداية قائداً أيمن نقيبة منك . ولئن تصرمت حياتك التى كانت نفعاً كلها ، وعوضت حياة خيراً منها ، فإن خير أعمالك متصل عميم إلى الأبد . ولا يعلم إلا الله كم نفعت سيرتك بعد مماتك ، وكم حفزت هماً خامدة وعزائم خائرة

ولقد جاء بعدك أناس كثيرون فبذلوا أرواحهم ودماءهم محامين عن الحق ، فخلفوك فى إرخاص الروح . ولا نزال نتلو متمثلين ولله الحمد : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » ولا تزال الأرض من المغرب الأقصى إلى طرابلس إلى فلسطين إلى الهند ، تنبت الشهداء ، ولا يفتأ الدم الطاهر يجرى أنهاراً فى سبيل الحق ..

ولكن أحداً من الزعماء لم يخلفك فى إنكار الذات وإهانة الهوى وقهر النفس ، ولم يذكر التاريخ بعدك قائداً فعل فعلك يوم اليرموك أو يوم دمشق .

« دمشق » سعيد الأفغانى

حمامة الغار ..

للأستاذ محمود حسن إسماعيل



حَمامةَ الغارِ ... أيُّ لحنٍ　　مِنْ جانبِ اللهِ عَبْقَرِيّْ !

أُلهِمْتِ دُنْياهُ مِنْ صَبَاحٍ　　فى سِدْرَةِ الْمُنْتَهى وَضِيّْ

وَمِنْ عِطارِ الْجِنانِ بَلْ مِنْ　　سُكُونِهِ الطَّاهِرِ الشَّذِيّْ

وَمِنْ نَشيدٍ عَلَى رُباهُ　　مُعَطَّرِ اللَّحْنِ سَرْمَدِيّْ

يَفُوحُ مِنْ زَهْرَةٍ ، وَيَزْكُو　　مِنْ جَدْوَلٍ تَحْتَها سَرِيّْ

رَنَّتْ بِأَصْدائِهِ ، وَغَنَّتْ　　مَلاحِمُ الْمُلْهَمِ الشَّجِيّْ

وَرَفْرَفَتْ فَوْقَهُ صَلاةٌ　　عَزَّتْ هُدَى الْعابِدِ التَّقِيّْ ...

قَبَسْتِ أَنْغامَكِ الشَّوادِى　　مِنْ فَجْرِهِ الرّائِعِ السَّنِيّْ

وَمِنْ مَجالِيهِ فى الرَّوابِى　　وَنَشْوَةِ الْماءِ فى الْغُنِيّْ

وَسَكْرَةِ الْهادِلِ الْمُغَنِّى　　وَخَشْعَةِ السَّوْسَنِ النَّدِيّْ

وَمِنْ دَوالِيهِ حِينَ تُغْفِى　　والطَّيْرُ نَعْسانُ فى الْعَشِيّْ

كَأَنَّها وَهْوَ فِي ذُراها　　بِالْخُلْدِ تَهْوِيمَةُ الْخَلِيّْ ...

وَجِئْتِ مِنْ جَنَّةِ الْأَعالِى　　لِشاطِئٍ أَقْدَسٍ عَلِيّْ

عَلَى جَناحَيْكِ لِلْبَرايا　　فى الْأَرْضِ آمالُ كُلِّ حَىّْ

أَقَمْتِ بِالْغارِ أَيَّ عُشٍّ　　مُشَعْشَعِ النُّورِ كَوْكَبِيّْ

غُصُونُهُ الْبِيضُ مِنْ شُعاعٍ　　بِمُعْجِزاتِ السَّنا جَنِيّْ

يَدُورُ بِالْحَقِّ أَيْنَ دارَتْ　　مَحاجِرُ الْباطِلِ الْعَمِيّْ

وَيَنْفُثُ السِّحْرَ أَيْنَ لَفَّتْ　　لِلْكُفْرِ عَيْنانِ مِنْ غَوِىّْ

ظَلَلْتِ وَالْوَحْىُ مُسْتَكِنٌّ　　مِنْ صَوْلَةِ الْفاجِرِ الْقَوِىّْ

تُلْقِينَ مِنْ وَكْرِكِ الْمُعَلَّى　　تَرْنِيمَةَ الْوادِعِ الرَّضِيّْ

كَأَنَّما عِشْتِ مِنْ زَمانٍ　　فى ذلِكَ الْمَسْبَحِ الْمُنِيّْ

خَبَأْتِ وَالْعَنْكَبُوتَ دُنْيا　　لِلْحَقِّ فى عالَمٍ خَفِىّْ

خُيُوطُهُ الْواهِياتُ أَضْحَتْ　　حُصُونَ مُسْتَعْصِمٍ قَوِيّْ

فَزُلْزِلَتْ دُونَها قُلُوبٌ　　بِالشِّرْكِ صَخّابَةُ الدَّوِىّْ

وذَلَّ مَنْ رامَها ، وَأَلْوَى　　فى حَسْرَةِ الْخائِبِ الشَّقِىّْ !

* * *

وَرْقاءُ ! يا لَيْتَنِى سُكُونٌ　　فى ظِلِّكِ النّاغِمِ الشَّجِيّْ !

صَمَدْتِ لِلْكُفْرِ ذاتَ بَأْسٍ　　يَوْجُ مِنْ عُشِّكِ النَّقِيّْ

صَبا لَكِ « الْمُصْطَفَى » وَقَرَّتْ　　عُيُونُ صِدِّيقِهِ الْوَفِيّْ

فَرَجَّعَ الْكَوْنُ فى هُتافٍ　　لِباعِثِ النُّورِ ... عَبْقَرِىّْ

نُبُيَّةُ الطَّيْرِ أَلْهَمَتْها　　إِعْجازَها جِيرَةُ النَّبِىّْ

مُهاجِرٌ ... تَهْجُرُ الْأَمانِى　　والْعُمْرُ فى ظِلِّهِ الْوَضِىّْ !!.

« وزارة المعارف »　　**محمود حسن اسماعيل**

الموسيقى فى الإسلام

بقلم محمد السيد المويلحى



يزعم بعض الناس أن الموسيقى محرّمة، لأنها تلهى الإنسان عن ربه، وتشغله عن دينه وعبادته، وتدفعه دفعاً لارتكاب مانهى الله عنه. فإذا سألتهم آية أو حديثاً قالوا: هذاشىء معروف منقول سمعناه من آبائنا وأجدادنا والسلف الصالح ...!

هذا زعم لم ينشأ أيام النبى صلى الله عليه وسلم ولا أيام الخلفاء الراشدين، وإنما نشأ أيام الدولة الأموية حينما سما مركز المغنين والقيان سمواً عظيماً حتى حجب مراكز العلماء والفقهاء الذين حقدوا على الموسيقى والموسيقيين حقداً كبيراً، واستسلموا لحوالجهم (وهم بشر!) فراحوا يذيعون بين الناس أن الموسيقى حرام، وأن الخلفاء قد نسوا دينهم وربهم، واتبعوا خطوات الشيطان ...!

ومن هنا نشأت هذه الشائعات وتطورت حتى غدت على ممر الأيام والأعوام قريبة من الاعتقاد والإيمان ...

وللإنصاف بعض رجال الدين فى هذا الوقت نقول: إنهم أبوا أن يتخذ بعض إخوانهم — فى العلم — الدين سلاحاً للتشفى والانتقام من فن رفيع سام يخفف عن الناس آلامهم وشقاءهم فأصدروا الكتب الكثيرة فى الرد على مبتدعى التحريم. ولعل أشهر هذه الرسائل وأقواها وأدعمها حجة تلك الرسالة (الخطية) الوحيدة الموجودة الآن (ببرلين) ... (الاستمتاع فى الرد على من يحرم السماع ...!)

قبل أن أذكر شيئاً عن الموسيقى فى صدر الإسلام وفى أيام النبى (ص) أحب أن أذكر شيئاً عن حياة العربى وطبيعة بلاده، وتأثير مناخه فى نفسه ليرى القارئ معى أن العربى موسيقى بطبعه وفطرته

البيئة العربية خالية مما يسر العين ويرضى القلب، فالصحراء شاسعة مترامية موحشة مقفرة لا حياة فيها، ولا أنس يُحييها. والسماء بنجومها وقمرها ... هى السماء بنجومها وقمرها (دائماً) لا تتغير ولا تتبدل ..!

فأى شىء يسد هذا الفراغ ... ويشغل نفس العربى ويملأ حسه غير (الغناء) الذى يساعد عليه رقة الشعر وسلامة قوافيه واختلاف بحوره؟ أى شىء يساعد الإبل والحداة على السير تحت الشمس المحرقة، وفوق الرمال الملتهبة المتقدة أياماً وأياماً بالعطش والجوع غير الغناء الذى ينسى الإنسان همومه، ويمسح دموعه؟

عرف العربى الترنم بالشعر ولم يكن يدرى أن هذا اللون من ألوان الموسيقى صناعة تخضع لقانون معين فاستمر هكذا يغنى ويشرب الخمر، ويتملق بالحب، ويكلف بالصيد واليسر حتى استطاعت القيان التى استقدمت من بلاد العجم والروم بآلاتهن الموسيقية الفارسية والرومية أن يؤثرن فى الموسيقى العربية تأثيراً كبيراً.

فنشط العرب فى هذا المضمار نشاطاً عظيماً، وإن كان هذا النشاط قد حجبه الكبرياء والتعالى، إلا أن حب الفن تغلب على غطرسة العربى فنهض واستحدث حتى احتفظ لموسيقاه بطابعها العربى الذى ميزها عن غيرها ولا يزال ...!!

وقد عرف العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام من الآلات الوترية (المزهر) وهو عود ذو وجه من الرق (والعود) ذا الوجه الخشبى (والجنك) أو الصنج (الهارب) (والمعزف) (والوتر)

ومن آلات النفخ المزمار، والقصبة أو القُصّابة، والشبّابة، والصُّور، والناى. ومن آلات النقر: الطبل، والدف، والقضيب — لبيان الميزان أو الإيقاع — والصنوج والجلاجل، والمربع والمجنب !!

انحصر جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فى الذود عن دينه وتبليغ رسالته، ونشر دعوته، وقتال المشركين ممن آذوه

وأصحابه فى أرواحهم وأموالهم ونسائهم ، ولـكن هذا لا يمنع أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب الموسيقى . فقد كان كلا (هادن) سمع من بلال ابن رباح الحبشى ، أول موسيقى مسلم ، وأول مؤذن فى الإسلام ، ترتيله وأذانه بصوت جميل ، وبتوقيع وترتيل فنى .

ولقد جاءته مرة عائشة رضى الله عنها وقالت: يارسول الله، لقد أقسمت شيرين مولاة حسان بن ثابت إن رجعت منصوراً من غزوتك أن تغنى وتضرب بالرق فى بيتنا ، فماذا ترى . ؟

فابتسم المصطفى وأذن لها وجلس مع حشد من صحابته وفيهم صديقه أبو بكر يسمع شيرين وهى تغنىوتضرب بالرق، واستمروا كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب فانكمشت شـيرين وجلست فوق (رقها) فضحك الرسول وقال :

لقد ذهب شيطانها لما رأى عمر .

فأجابت شيرين : كلا يارسول الله ولـكنه قاس لا يرحم وأنت كريم رحيم !

فضحكوا جميعاً حتى عمر .

ولقـد اتسعت فتوح العرب أيام عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وانتفع العرب بمدنيات البلاد المغلوبة وحضاراتهم ولا سيما الحضارتين الفارسية واليونانية، فتأثر العرب من اختلاطهم بهؤلاء الأسرى واهتموا بأمور دنياهم ، وأصبحوا ينظرون إلى الموسيقى نظرة جديدة خالية من الغلو والشطط حتى ارتفعوا بها على الشعر والأدب ، وحتى غدوا لا يرون بأساً ولا ملامة فى أن يحضروا مجالسها. وقد كان حسان بن ثابت رضى الله عنه يسمع من مولاته شيرين ومن رائقة سـيدة المغنيات وقتئذ وتلميذتها عزة الميلاء وكذلك كان حال أشراف العرب وساداتهم ... !

وأحسب أن عصر ابتداء النهضة الحق ابتدأ فى خلافة على كرم الله وجهه . ولعل حبه للشعر وهو لون من ألوان (الفن) أكبر حافز. على أن هذه النهضة لم تؤت ثمرها اليانع إلا فى الدولة الأموية عند ما اتسعت الفتوحات شرقاً وغرباً . وقد ابتدئ فى وضع الألحان العربية فى هذا العصر على إيقاعات متعددة، وورد فى غنائه ذكر إيقاعات (الثقيل) الأول و (الثقيل) الثـانى ، وخفيف الثقيل ، والهزج ، والرمل

وأشهر الموسيقيين فى هذا العصر هو (سائب خاثر) ، وهو أول من غنى فى المدينة بالعربية مستعملاً العود . وقد أخذ عنه ابن سريج ، ومعبد ، وعزة الميلاء ، وجميلة !

ومن المشهورين أيضاً ابن مسجح أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب بمكة . وقد ابتدع مذهباً خاصاً وطريقة جديدة تأثر بها وأخذ عنها ابن محرز ومعبد وابن سريج والغريض

وقد بلغ من اهتمام الأمراء والحكام بالموسيقى أن الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه كان موسيقيًّا وملحناً . وقد اشترى يزيد بن عبد الملك (حبابة) المغنية بأربعة آلاف دينار مع أنها كانت دميمة متهدمة ...

ولعل فى رعاية الوليد بن يزيد لمعبد وتمريضه إياه وإخلاء جناح خاص له فى قصره ، ثم تشييعه لجنازته بنفسه أكبر برهان على مكانة الموسيقى وقتئذ . وقد كان الوليد عالماً بصناعة الألحان عازفاً بالعود موقعاً بالطبل والدف

وقد سرى تيار هذا الاهتمام إلى الأشراف والنبلاء حتى أن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب كان لا يستريح إلا إذا سمع (سائب خاثر) فينشط . وسكينة بنت الحسين رضى الله عنها وعن أبيها ، كانت مشغوفة بالغناء والموسيقى ، وكانت تكرم الغريض ، وكان بيتها منتدى لسماع الموسيقى والغناء ، وقد طُـلِب منها مرة أن تستدعى (حنين الحيرى) مُغنِّى (الحيرة) ، فاستدعته مع أشهر المغنين فى الحجاز ابن سريج ، ومعبد ، والغريض . وقصد الأربعة بيتها فحفلت الدار بالناس حتى ضاقت بهم ، فصعدت شرذمة منهم فوق (السطح) وأخذ حنين يغنى ويغنى والناس تموج وتهتف ، وإذا (بالسقف) يهوى بمن فوقه على رأسه فمات مخنوقاً . فقالت السيدة سكينة : « لقد كدر علينا حنين سرورنا . انتظرناه مدة طويلة كأننا والله كنا نسوقه إلى منيته »

وفى العصر الأموى ابتدأت حركة التأليف الموسيقى فوضع يونس الـكاتب (كتاب النغم) و (كتاب القيان)

أما فى العصر العباسى ذلك العصر الذهبى للموسيقى والأدب والشعر فقد سمت فيه الموسيقى سمواً عظيما وارتفعت إلى ذروة المجد ، وزادت مقاماتها وطرائق إيقاعها حتى تعددت فى اللحن الواحد وكثرت الآلات وتنوعت وكثر استعمالها

وأصبح العربى يفخر بأنه موسيقى حتى أن أبناء النبلاء

انخرطوا فى سلكها ، فكان منهم ابن جامع القرشى . بل زاد اهتمامهم إلى حد الاحتراف كإبراهيم بن المهدى . . !

والخليفة الواثق كان من أحذق الخلفاء بل من الموسيقيين المحترفين أنفسهم بالغناء والعزف على العود ، وقد قال فى إسحاق الموصلى :

(ما غنانى إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد لى فى ملكى . . وإن إسحاق لنعمته من نعم الملك التى لم يحظ بمثلها ، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى) (الأغانى) وإسحاق هذا هو أول من عنى بإثبات قواعد الموسيقى العربية ونظرياتها بعد يونس الأكوى وجاء بعده الخليل بن احمد فصنف كتاب (النغم والإيقاع) ولكن الذى بزهما هو إسحاق ابن يعقوب الكندى الذى ألف عدة كتب فى الموسيقى ونظرياتها ؛ وهو أول من دون الموسيقى بالحروف بشكل مرتب ، وهذا أكبر رد على من يتهمون العرب بإهمال تدوين تلاحينهم . ثم جاء بعده أيضاً أبو نصر محمد الفارابى فوضع (كتاب الموسيقى الكبير) الذى تدين له الموسيقى بالشىء الكثير . وفى العصر العباسى أمر هارون الرشيد اسحق الموصلى ، واسماعيل ابن جامع ، وفليح ابن أبى العوراء ، أن يختاروا له من الألحان العربية مائة صوت فصنعوا .

ومن أشهر الموسيقين فى هـذا العصر إبراهيم الموصلى ، وإسحاق الموصلى ، وفليح بن أبى العوراء ، ويحيى المكى ، وحكم الوادى ، وزلزل ، ومخارق ، وبذل المغنية ، وابن جامع

وقبل أن نختم هذه اللمحة العابرة نحب أن نقول لهؤلاء الذين يعتقدون أن الموسيقى محرمة : هذا هو شأن الموسيقى فى صدر الإسلام

إن الموسيقى فى ذاتها نبيلة رفيعة ، ولكن المحرم فيها هو التخنث والبكاء والاسترضاء واستغلال الغرائز البهيمية ، وهذا ليس بمحرم شرعاً فحسب ، بل هو محرم شرعاً وذوقاً ورجولة أيضاً

محمد السيد المويلحى

المراجع : مقدمة الدكتور محمود احمد الحفنى .. الأغانى للأصفهانى

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين }